الجزء ١١ المجلد ١٠



(دمشق) : تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ م الموافق جمادى الثانية ورجب سنة ١٣٤٩ هـ

وليمة ابن واسانة

وصف المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي أحوال القرون الاسلامية الماضية وذكر مميزات كل قرن منها . وقال : ان القرن الرابع قد امتاز على بقية القرون بغلبة (خيالات الصوفية) عليه .

وقوله هذا مسلّم بالنسبة الى ماعدا قطرنا الشامي من مجموعة الأقطار الاسلامية . اما هو فأرى ان خيالات الصوفية لم تكن الغالبة عليه وانما الغالب عليه كان اللهو والطرب والتمتع بملذات الحياة على اختلاف ضروبها . وتنوع أشكالها : فقد كان لسوريا في القرن الرابع حالة سياسية منقلقلة جعلت السوريين يستسلمون للقدر فيما يتعلق بامور الملك والسياسة . ومن طبع الاستسلام للقدر ان يولد في نفس صاحبه فتوراً عن الكد والعمل وميلاً الى الراحة في ظلال النعيم . والتفريج عن القلب باللهو والطرب . وضروب المسليات . ومن هنا يمكن التوفيق بين ماقلناه عن طبيعة القرن الرابع وبين ماقاله الكواكبي : فهو يقول ان خيالات الصوفية كانت الغالبة عليه وقلنا نحن ان الاستسلام للقدر ثم للهو هو الغالب على أهله . ولكن أليس هذا الاستسلام اثراً من آثار خيالات الصوفية ؟ أليست خيالات الصوفية التي تسربت الى أذهاننا من متصوفة الأعاجم هي التي زهدتنا في الملك والسياسة وسهلت علينا الخضوع للعناصر الأعجمية . وجعلتنا نستسلم للقدر . ونهيم بالسوالف

---

(١) محاضرة للاستاذ المغربي ألقاها في ردهة المجمع العلمي العربي بدمشق بتاريخ ٢ و ٩ تشرين الثاني من سنة ١٩٢٨ م .

والطور . ونلهو بشرب الراح وعزف الوتر .

وهذا عمر الخيام الأعجمي ما الذي جعله يعيش معيشته الابيقورية لولا الخيالات الصوفية .

حالة سوريا في القرن الرابع

كانت سوريا كالزورق المستمسك بحبل الخلافة العباسية فلما ضعف شأن هذه الخلافة بتغلب آل بويه الأعاجم عليها في القرن الرابع للهجرة انقطع حبل السفينة فتاهت في عرض البحر . واذ ذاك اخذ أمراء مختلفو الجنسية يتجاذبون تلك السفينة من كل جانب : بعضهم يدعي ولايتها باسم خلافة بغداد العباسية وبعضهم باسم خلافة مصر الفاطمية . ولا ننسوا علوج الروم الذين كانوا في ذلك القرن يتواثبون على سوريا من ثغور آسيا الصغرى . ولا القرامطة وفِرَق الباطنية . ولا شراذم الأعراب التي كانت تعيث فساداً في الشامات فتروع آمنيها . وتقلق راحة ساكنيها . وقد اتصلت هذه الحالة المزعجة بزمن ابي العلاء المعري فوصفها وأشار الى ان عاطفة حب الوطن هي التي جعلته يألف الشام وحببت اليه الإقامة فيها . فقال مشيراً الى ما كانت تقاسيه البلاد من أذى الأعراب :

(أَلِفتُ بلاد الشام إلف ولادة تلاقي بها سود الخطوب وحمرها)
(فطوراً نداري من سُبَيْعة ليثها وحيناً نصادي من ربيعة نمرها)

ويظهر ان ابا العلاء في آخر الامر ملّ مداراة قبيلتي ربيعة وسبيعة ولم يعد يطيق الصبر على أذى ليثها ونمرها . فرحل عن الشام الى بغداد وقال يخاطب ناقته :

(اذا دنوتِ لشامٍ او مررتِ به فنكّبيه وراء الظهر او حيدي)
(قد غيّر الدهر منه كل مبتهج وألحد السيف فيه بعد توحيد)

ثم عمّ الخطب بلاد الشام : فزحف عليها الصليبيون ونقصوها من أطرافها . واستولوا على معرة النعمان فرحل عنها ساكنوها يحملون معهم البؤس والشقاء . حتى قال قاضيها ابو المجد المعري واصفاً ما كابده في غربته . وما قاساه من بلادة غلامه (شعيا) الذي كان في خدمته :

(زمان غاض اهل الفضل فيه فسقياً للحنوف به ورعيا)
(أسارى بين أتراك وروم وفقد أحبةٍ ورفاق شعيا)

ولكن في ظل هذا الاضطراب السياسي والقلق الاجتماعي الذي استحوذ على بلاد الشام كانت تنمو العلوم والآداب . وتزدهر فنون الحكمة والطب والفلك : فكان في ذلك العصر أكبر المؤلفين . وأشهر الفلاسفة والشعراء والمتأدبين . وقد غصت دور الكتب بالأسفار وآثار العلم الخالدة . وناهيكم مكتبة آل عمار الشهيرة في طرابلس الشام .

وما أشبه حالة القرن الرابع بعد الاسلام بحالة عرب الجاهلية قبل الاسلام : فقد كانت عرب الجاهلية في أحط الدركات من الوجهة الاجتماعية وان شئت قلت السياسية ايضاً . لكنهم كانوا في مستوى راقٍ من بلاغة القول والنبوغ في الشعر والحكم وضرب الأمثال . وكما كانت ربوع العلم والعرفان زاهرة في بلاد الشام . وكانت مجالس رؤسائها أشبه بنوادي أدب وشعر — كذلك كان شأن الحضارة وانفساح العمران وتوفر اسباب الترف والنعيم ورغد العيش .

هكذا كانت البيئة الشامية يومئذ .

نرى من جهةٍ حكاماً أعاجم يسوسون البلاد بالظلم والقهر . ومن جهة ثانية كنت ترى سوق العلم والأدب والشعر رائجة . وقد مهدت الحضارة امام الكافة طرق العيش الهني . والحياة الرغدة .

بيئةٌ هذا شأنها لابد ان يطرح اهلها عن عواتقهم عبء الاهتمام بالسياسة والشؤون العامة وان يقبلوا على اللهو والطرب . والاصغاء الى أغزل الشعر وأفكهه . وعدم التصوّن من سماع أمجن القول وأفحشه .

في مثل هذا الوسط كان يعيش عبدالله بن الحجاج وابن سكرة والببغاء والحسين بن واسانة صاحب لوليمة . وأضرابهم ممن كانوا يجنون ثمار الملذات . من بين اشواك الفتن والاضطرابات . و يرشفون كؤوس المسرات . ولو تحت مشتجر القنا وظلال المشرفيات .

نرجع القهقرى في عصور التاريخ الى حوالي (سنة ٣٨٥هـ) لنتصور حالة دمشق نفسها : الأمر والنهي فيها يومئذ للعامة والأحداث [1] وجنود المغاربة . اما الخاصة والأشراف فماذا يكون لهم من التأثير والنفوذ إزاء هذا الجيش المختلط المتذمر .

(١) وكأنهم يريدون بالأحداث ما نريده اليوم بكلمة قبضايات وفتوات .

نزور جامع دمشق ، ونمر في أسواقها ، ونغشى دور عظمائها ، ومجالس علمائها ، فلا نسمع الا همساً ، والا قولهم تباً وتعساً .

نسمع هذا يقول :

ومتى ينظر المولى تعالى الى دمشق فينقذها من ظلم عمال الفاطميين ؟ ها إننا لم نكن ننجو من (منجوتكين) و (ابن تميم) حتى جاءنا هذا الجبار (ابن الصمصامة) . حقاً ان ظلم هؤلاء هو الذي جعل بني حمدان امراء حلب يستنجدون بباسيل (باسيليوس) ملك الروم .

فأجابه آخر :

وهل تظن ان الروم أشفق علينا ، وأرحم بنا من امراء الفاطميين ؟ أنسيت ما فعله (البرجي) عامل الروم على انطاكية — باهل اللاذقية ؟ بل أنسيت ما كان من (باسيل) نفسه مذ جاء بلاد الشام على اثر استنجاد الحمدانية به . فنزل على أبواب حلب . فرحب به امراؤها آل حمدان . ثم سار الى حمص ففتحها وحاصر طرابلس الشام اكثر من اربعين يوماً ثم عاد الى القسطنطينية . اما واليـنا الفاطمي (ابو تميم) فلا أتم الله عليه نعمته : جاءنا بعد ان غدر بنا اخوه (علي) فواسانا . وطيب خواطرنا في اول الامر . ثم ظهر لنا من حاله ما لم يكن في الحسبان . وإن انسَ لا انسَ ذلك اليوم الذي جاء فيه الى جامع بني أمية يصلي الجمعة في ذلك الموكب الفخم . وقد ظهر على الناس بزيّ أهل الوقار . وبين يديه القرّاء والحجاب يفرّقون الدراهم على المساكين . وبعد ان صلى عاد الى قصره بظاهر دمشق وجعل ينظر في الظُلامات ويأمر باطلاق من في الحبوس . وبهذه الصورة استمال اليه قلوب العامة فأحبوه . ولكن ما عتّم ان انكشف امره . اذ تبين للناس انه مع سياسته وحسن ادارته كان مستهتراً بالملذات . فنقمت منه العامة والجنود . وهجموا عليه في قصره . ونهبوا خزائنه . وأوقعوا برجاله . وهرب هو فلم يوقف له على أثر . وسادت الفوضى في دمشق . وخلا الجو للأحداث والشطار ولرئيسهم (الدُهيقين) الذي تولى قيادتهم . وعرف كيف يستثمر شطارتهم . واستمر الهرج والمرج حتى جاءنا (ابن الصمصامة) موالي من قبل الفاطمي صاحب مصر . فخاف زعيم الأحداث (الدهيقين) من (ابن الصمصامة) فتسلل هارباً الى مصر طالباً الأمان لنفسه .

ولم يكد صاحب الحديث يتم حديثه حتى ناداه آخر — ويظهر من لهجته انه من اهل الساحل — فقال :

ما أشبه دهيقينكم يااهل دمشق بعلاّقة امير اهل صور . وأظنكم لاتعلمون من امر علاّقتنا هذا شيئاً : هو رجل نوتي . عصى مع اهل صور مارقاً من طاعة ملك مصر . وضرب سكة باسمه وكتب عليها (عزّ بعد فاقة الامير علاّقة) . فأرسل اليه ملك مصر اسطولاً مشحوناً بالمقاتلة . فاستنجد الامير (علاّقة) بالروم كما استنجد بهم قبله الحمدانيون ملوك حلب . فأنفذ ملك الروم الى معونة علاّقة اسطولاً فالتقى الاسطولان ثم كانت الغلبة للمصريين على الروم . وفي آخر الامر أمسك علاّقة . وعاد الى الذل والفاقة . وأرسل الى مصر فسلخ وصلب غير مأسوف عليه .

ثم قال الساحلي يخاطب اهل دمشق : كيف رأيتم : أليس ان دُهيقينكم كان أشد فطانةً من (علاّقة) صور مذ بادر الى مصر وطلب الامان لنفسه ؟

فقال احد الحاضرين : دعونا بالله عليكم من (علاقة) و (دهيقين) وفكّروا في حالتنا الحاضرة : فكّروا في (ابن الصمصامة) الذي عاد من مصر الينا . وتزل نزول البلاء علينا . استقبلناه وهنئنا بالدعاء له وأخلينا له قرية (بيت لهيا) في الغوطة ليكون مقامه فيها مع عسكره . فأظهر لنا في اول الامر العدل . وتخفيف الثقل . وبالغ في الحفاوة : نخلع على رؤساء الأحداث . وحملهم على الخيل والبغال . ووهب لهم الجواريَ والغلمان . وعين بعضهم له حجابا . ثم لم يلبث ان قلب لهم ظهر المجن فأوقع بهم وزحف بعسكره من (بيت لهيا) على سور دمشق فثلمه . وسمح لجنوده المغاربة ان ينزلوا في منازلنا وجعل يطوف في دمشق للبطش والتنكيل والناس يلوذون به مستغيثين طالبين لرحمته . فكفّ عنهم واستدعى اليه أشراف دمشق فجاؤوه مطمئنين حتى اذا استراحوا اخرج رؤساء الأحداث الذين في سجنه فضرب أعناقهم والأشراف ينظرون اليهم . ثم صلب كل واحد في محلته . وجرّد عسكراً الى المرج والغوطة وامرهم بوضع السيف في من بها من الأحداث . ثم عاد فقبض على الاشراف ونفاهم الى مصر وصادرهم في اموالهم ونعمهم . ووضع غرامة على اهل البلد بلغت خمسمائة الف دينار . اما الذين قتلوا في هذه الكارثة فقد بلغوا نحو ثلاثة آلاف نفس .

هكذا كانت نار الفتنة تضطرم في دمشق : رقاب تُضرب . وشبان تُصلب . واموال تُنهب . وأشراف تُنفى وتغرّب . وابن واسانة[1] منهمك في إعداد وليمة في قرية (جرايا) لضيوف قادمين عليه من دمشق .

اليوم صحو . والهواء عليل . وغوطة وادي بردى كحسناء مستلقية في ذلك الوادي . قد نقعت قدميها في مياه النهر وأسندت رأسها المكلل باغصان الحور الى هضبة من هضاب الربوة . واستغرقت في نوم عميق لم يوقظها منه الا أشعة الشمس . وخرير المياه . وزقزقة العصافير . وإلاّ ضوضاء الضيوف المسرعين الى وليمة (ابن واسانة) .

فكنت ترى هؤلاء المدعوين يتراكضون على ظهور عتاق الخيل . وفُرْه البراذين : هذا يغني . وذاك ينشد الشعر . والآخر يطارح رفيقه النكتة . ولطيف المداعبة . يتخلل ذلك كله صهيل الصوافن . وأصوات وقع الحوافر . وعطعطة الخدم والاتباع . يتبادلون السباب . ويتنابزون حسب عادتهم بالألقاب .

وليمة (ابن واسانة) هذه في قرية (جرايا) لها دويّ في أعماق كتب الأدب والتراجم : فقد دوّنها الثعالبي في اليتيمة (جزء ١ ص ٢٦٦) وخلد ذكرها ياقوت في معجم الادباء . وهاهي قد مضى عليها زهاء الف سنة ومازالت رطبة في الافواه . حلوة الوقع على الاسماع .

إذن يلزمنا ان نعرف (١) من هو ابن واسانة ؟ (٢) اين هي قرية جرايا ؟ (٣) كيف كانت هذه الوليمة ؟ (٤) ماهي حالة جرايا اليوم ؟ .

ابن واسانة

هو ابو القاسم الحسين بن الحسين بن واسانة بن محمد المعروف بالواساني . و يظهر من هذا النسب ان (واسانة) اسم لاحدى جداته او أجداده فنسب اليها اواليه . وسماه (ياقوت) في معجم الادباء (ابن واسان) . وقال صاحب اليتيمة (جزء ١ ص ٢٦١) في نعته

(١) الحوادث التاريخية التي سردناها في هذه المحاضرة وقعت حوالى سنة ٣٨٥ هـ ولا ريب ان وليمة (ابن واسانة) وقعت ايضاً في ذلك الزمن . لكن لانعلم في اي سنة كانت . اما وفاته هو ففي سنة ٣٩٤ هـ .

(هو اعجوبة الزمان ونادرته · وفريد عصره وباقعته · وهو احد الفضلاء · المجيدين في الهجاء · وكان في زمانه · كابن الرومي في أوانه) هذا ماقاله الثعالبي · ويستنتج من تضاعيف كلامه ومن قصيدة هجوية لابن واسانة هجا بها ابا الفضل يوسف بن علي — ان ابا الفضل هذا كان والياً على ديوان الخراج والضياع في دمشق وكان ابن واسانة كاتباً عنده وكان مَنَشّا او (مَنَسّي) بن ابراهيم القزاز اليهودي موظفاً في ديوان الخراج بل ربما كان رئيس كتّاب ذلك الديوان · فحمل الطيش ابن واسانة على نظم قصيدة في هجاء رئيسه (ابي الفضل ومنسي) وكان هجوه غاية في الاقذاع والفحش · فما كان من ابي الفضل الا ان عزله فبقي من دون عمل طول عمره ثم مات (سنة ٣٩٤ هـ ١٠٠٣ م) ·

اما إفحاشه في شعره فربما فاق فيه رصيفه ومعاصره عبد الله بن الحجاج (٣٩١ هـ ١٠٠٠ م) فكان ابن الحجاج زعيم الهجائين في العراق · كما كان ابن واسانة زعيمهم في بلاد الشام ·

وكان شعراء ذلك العصر الهجاؤون يخيفون الرؤساء وكبار رجال الدولة ويحملونهم على إكرامهم وتقليدهم الوظائف والاعمال · لا بالالتماس او ابراز شهادة بل بقوة التهديد والهجو وهتك الاستار عن قبيح الاسرار وهي الطريقة التي يسميها أدباء الافرنج شانتاج (Chantage) فالشاعر البسامي البغدادي المتوفى في زمن الخليفة المقتدر (٣٠٣ هـ ٩١٥ م) هدد رؤساء الدولة ان لم يولّوه عملاً فقال :

(قل للرؤوس ومن تُرجى نوافلهم ومن يُؤمل فيه النفع والعمل)
(ان تشغلوني باعمال أصيّرها شغلاً والا ففي أعراضكم شغل)

ابن واسانة دمشقي او حلبي ؟

في قصيدة (ابن واسانة) الآتية بيت من الشعر وصف نفسه فيه بانه (غريب ناءٍ عن الاوطان) إذن هو غير دمشقي · وفي حلب حمام يسمى (حمام الواساني) فهل ابن واسانة حلبي؟

جاء في كتاب (نهر الذهب في تاريخ حلب) مانصه : (الحمام الذي يعرف بالواساني ويقال له (الواسانو) قديم جداً : قال صاحب كنوز الذهب : في هذا الحمام حجر اسود يُذكر ان الخليل ابراهيم عليه السلام اغتسل منه ولم يزل هذا الامر مشهوراً حتى

الآن . وهو حمام مبارك يدخله الناس للتبرك بآثار الخليل عليه السلام و يحصل لهم الشفاء من أمراضهم خصوصاً النساء . ولم يزل يزعم من يستأجر الحمام ان الجرن موجود فيه حتى الآن والحمام من أوقاف الحاج موسى الاميري اه .

وكتب اليّ بعض فضلاء حلب وقد سألته عن الواساني فقال :

« الواساني رجل له حمام بحلب ينسب اليه . والحمام موجود الى اليوم في سويقة حاتم وراء الجامع الكبير تابع لوقف الاميري ويسميه العامة (حمام الويسيني) بالإمالة . قال الرضيّ الحنبلي في كتابه (الزُبْدوالضَرَب) الواساني هو الذي ينسب اليه الحمام بحلب واسمه الحسن وكان شاعراً هجاءً وان كان العوام يعتقدونه اليوم من الاولياء وارباب المزارات اه .

ومن هذا يفهم ان باني الحمام في حلب هو ابن واسانة صاحب الوليمة في قرية جُمرايا بدليل ماوصفه به من انه كان شاعراً هجاءً . غير انه سماه الحسن وصوابه الحسين كما في يتيمة الدهر . فهل يصح لنا الحكم بانه حلبي ؟ كلا : فان الشبهة في نسبته الى حلب مازالت موجودة بدليل ان في كتاب (يتيمة الدهر) قصيدة هجوية لابن واسانة ومطلعها :

(ياساكني حلب العواصم جادها صوب الغمامة)

(انا في مدينتكم غريب لست من اهل الإقامة)

فالله يعلم اين كان مسقط رأس ابن واسانة قبل انه يسكن (حلب) و (دمشق) اولعله يريد بقوله (انا في مدينتكم غريب) انه كالغريب في عدم وجود اصدقاء له او في سهولة رحيله عنها فهو لايهاب من يهجوهم ولايخشى بطشهم على حد قولهم (لاتعاند من اذا هدّ رحل) فيكون حلبياً وأقام في دمشق طويلاً .

قرية جمرايا

هذه القرية من قرى دمشق وقد كان لها يوم أقيمت فيها وليمة ابن واسانة منذ الف سنة شأن عظيم . ثم انحطت في عمرانها حتى أصبحت مزرعة صغيرة واخذ اسمها (جمرايا) يتضاءل و يتلاشى من الالسنة شيئاً فشيئاً اللهم الا من ألسنة أكّاريها القليلين الخاملين . ومما زاد في غموض امرها وضياع اسمها ان جيمها كانت تتصحف في كتب الأدب واللغة :

ففي (اليتيمة) اسمها (حمرايا) بالحاء المهملة . وكذا في تاج العروس : فقد روى مؤلفه بيتي احمد بن منير هكذا :

(بالنيربين فمقرّى فالسريـر فحمـ ـ رايا فجوّ حواشي جسر جسرين)
(فالقصر فالمرج فالميدان فالشرف الأعلى فسطرا فجرمانا فقلدين)

وذُكرت (جمرايا) في معجم الادباء باسم (خمرايا) بالخاء المعجمة . اما في (معجم البلدان) فذكرت مرتين مرة باسم (حمرايا) بالمهملة ومرة باسمها الصحيح (جُمرايا) بالجيم المعجمة وذلك بمناسبة الكلام على نهر بردى فقد قال : ان عيوناً تظهر على مقربة من الزبداني فتصب في قرية الفيجة وتنضم اليها عين أخرى . ثم يخرج الجميع الى قرية تعرف بجمرايا (وقد ضبطها بالشكل بضم الجيم) فيفترق الماء حينئذ فيصير اكثره في بردى و يحمل الباقي نهر يزيد » اه .

هكذا تصحف اسم هذه القرية وكادت هي نفسها تنطمس ايضاً حتى اني سألت التُّنَّاء المعمرين من اهل دمشق عنها فلم يعرفوها لا باسمها الحقيقي ولا باسمها المصحّف . وأجدر الناس بالحيرة هم أدباء دمشق وعلماؤها الذين كانوا يقرأون حكاية وليمة ابن واسانة في كتاب اليتيمة المطبوع في بلدهم ويتمنون لو يعرفون اين هي قرية جُمرايا التي أقيمت فيها الوليمة وكان أشدهم حيرةً المرحوم الشيخ طاهر الجزائري فقد مات وبقيت في قلبه حسرة من (جمرايا) كما مات الاصمعي وفي قلبه حسرة من (حتى) .

ولما طالعت (اليتيمة) في شهر مايس سنة ١٩٢٦ وقرأت وصف الوليمة الواسانية شاركت الاخوان في حيرتهم وأخذت أتساءل عن قرية (جمرايا) وأراجع عنها في المظانّ وكنت كلما أوغلت في المراجعة ارتطمت في الشبه والشكوك .

ثم اتفق في اثناء الحرب العامة ان الاستاذ الشيخ عبد القادر الخطيب احد خطباء الجامع الأموي ملك قطعة ارض في مزرعة (جمرايا) فعلم من أكّاريها ان اسم مزرعتهم (جمرايا) بالجيم و بالطبع كان اسمها كذلك في اوراق التمليك الرسمية التي بيده . وقد بنى الاستاذ ثمة داراً حسنة وجعل يحدّث اخوانه عن (جمرايا) وجمال موقعها وطيب هوائها . و يدعوهم الى زيارته و بهذه الصورة نشرت قرية (جمرايا) من مطمورة العدم وعادت

فولدت من جديد باسمها الحقيقي وظهر ان محلها وادي بردى على قيد غلوة من قرية الهامة متنزه اهل دمشق المشهور .

وقال بعض الفضلاء « ان قرية جمرايا كانت موقوفة على احدى مدارس دمشق » وإذن لا بد ان يكون لها ذكر في كتاب (الدارس في المدارس) فلعلنا نظفر به ونحن نصحح هذا الكتاب اليوم ونعده للطبع والنشر .

وسمعت فاضلاً آخر يقول : ذكر ياقوت في معجم البلدان (ان قرية يقال لها جمرايا واقعة بين الهامة والأشرفية كانت قديماً مصيفاً لملوك دمشق) ولم أعثر على هذا النص في المعجم .

وليمة ابن واسانة

عرفنا ترجمة (ابن واسانة) وشيئاً عن قرية (جمرايا) بقي علينا ان نعرف ماهي الظروف التي جعلت ابن واسانة يقيم هذه الوليمة في جمرايا ؟ .

لم توصف هذه الوليمة نثراً في كتب الأدب وانما وصفها صاحبها ابن واسانة شعراً بقصيدة فاهافيها : والقصيدة نحو مائتي بيت ذكرها الثعالبي في (اليتيمة) ثم قال مانصه :

« قد أحسن في هذه القصيدة غاية الاحسان . وأبان فيها عن مغزاه احسن بيان . وتصرف فيها واطال . وامكنه القول فقال . واذا تخلص الشاعر عند الإطالة والوصف هذا التخلص . سلم مما يؤديه الى التكلف والتلصص . فهو الذي لا يدرك غوره . ولا يخاض بحره اهـ .

ويمكننا ان نستخرج اسباب هذه الوليمة من القصيدة نفسها التي قيلت فيها : فقد كان يوجد في دمشق في ذلك العهد رجل من الاشراف يكنى (اباالقاسم) وله اخ اسمه (الفضل) ويظهر انهما كانا صديقين للشاعر ابن واسانة وانهما من أصحاب الجاه والظهور والطول والأتباع . فكلفا ابن واسانة ان يصنع لهما وليمة في قصره في قرية (جمرايا) وكان معهما جمع من الأصدقاء والأدباء . منهم رجل اسمه (الشمولي) ولعل الشمولي هذا هو (بدر الشمولي) الذي تقلد ولاية دمشق سنة ٣٦٣ هـ وان لم يكن هو فواحد من ذريته . وكان في جملة المدعوين (بنو ابي صفوان) ورجل اسمه (ابن المبشر) وصديقان لابن واسانة لم يصرح باسمها : احدهما أديب والآخر كاتب . ويفهم من القصيدة ايضاً ان لابن واسانة ولداً صغيراً يحبه اسمه

(ميمون) بذكر في القصيدة ان الخروج الى الوليمة كان ليلة الخميس المصادفة لليلة عيد المرافع . ولم يعين في أية سنة كانت الوليمة . وأشار الى ان قرية (جمرايا) تبعد عن دمشق تسعة أميال . وقد مر ان جمرايا على غلوة من الهامة والهامة تبعد عن دمشق ١٣ كيلومتراً . وفيما عدا ذلك استوعبت القصيدة اسماء المآكل والمشارب ونتفاً من أحوال ذلك الزمن الأخلاقيـة والاجتماعية مما يحرص عليه كل من يهمه الوقوف على تاريخ دمشق وأخلاق اهلها وحالة عمرانها منذ الف سنة .

ولعمري ان في هذه القصيدة الخالدة اكبر دليل على درجة الترف والرغد الذي كان يتمتع به اهل دمشق في ذلك العهد . ولا نطيل في وصف القصيدة وما يستخرج منها من الفوائد اللغوية والأدبية والتاريخية بل ندع ذلك لها ولقائلها (ابن واسانه) فهما أفصح لساناً . وأروع بياناً .

تعلمون ايها السادة ان الإلفة وارتفاع الكلفة اذا استحكما بين شخص وبين من يدعوهم الى ضيافته فكثيراً ما يأخذ هؤلاء الضيوف ينهبون الطعام تارة . ويستقلونه طوراً . ويكلفون صاحبهم احياناً ان يحضر لهم ألواناً أخرى من الطعام وأطايبه . بل يقومون فيفتشون عنها في زوايا البيت ومخابئه . فيأخذ صاحب الدعوة اذ ذاك في الصراخ والعويل والتبرم بالقوم ورفع الصوت في الدعاء عليهم . بل يحلف انهم خربوا داره . وأفقروا اهله وصغاره .

يقع هذا بين الأصدقاء في هذه الايام . وعلى هذا الاساس بنى ابن واسانة قصيدته التي قالها منذ الف عام : فهو يصف المدعوين بالشره والنهم وانهم كالجراد المنتشر لم يدعوا في قريته أخضر ولا يابساً الا التهموه . ولا متاعاً او إناء الا حطموه . وقد سلك في الوصف مسلك الغلو والتهويل . زيادة في الإحماض والمداعبة واظهار المقدرة في نظم الشعر وحسن التصرف في أفانين القول وابتكار المعاني . حتى قال ياقوت في كتابه (معجم الادباء) : « انه احسن في هذه القصيدة كل الإحسان . وابان عن مقاصده احسن بيان » . وموعدنا بالقصيدة العدد الآتي :

« المغربي »

المحاضرة العشرون

روح المتنبي (١)

- ١٢ -

لكل شاعر روح تفيض على جنبات شعره ، ومهما حاول ان يخفي هذه الروح فلا بدَّ لها من الظهور ، لكل شاعر روح ، هذا تعبس الدنيا في نظره فنرى في أضعاف شعره ظلمة الدنيا وعبوسها ، وهذا تبتسم الايام في وجهه فنجد في اثناء شعره ضياء الايام وابتسامها ، هذا يسترسل الى جد الحياة فلا نقع في شعره على شيء من هزلها ، وهذا ينبسط الى هزل العيش فلا نشعر في فيض قريحته بشيء من جدّه ، شاعر ضياء الامل مستفيض في شعره ، وشاعر ظلمة اليأس شائعة في قريضه ، لكل شاعر روح ، ما هي روح المتنبي ، ما هي هذه الوثبات التي وثبها في كل مذهب من مذاهب شعره ، في نسيبه ورثائه ، وفي أماديحه واهاجيه ، ما هي هذه النزعات التي نزعها في فخره وغنائه ، وفي صبوته القلقة ، واكتهاله المضطرب .

نشعر ونحن نقرأ شعر ابي الطيب بان الحياة مظلمة الجوانب في عينيه ، كامدة الالوان في نظره ، فلسنا نجد في هذا الشعر اثراً من آثار بشاشة الدنيا وابتسام الزمان ، ان في روح المتنبي شيئاً من الانقباض ، ليس معنى هذا ان اباالطيب لم يعرف قيمة الحياة ، ولم يقدرها حق قدرها ، فان الذي يقول :

أنعم ولذّ فللأمور اواخر	ابداً اذا كانت لهن أوائل
مادمت من أرب الحسان فانما	روق الشباب عليك ظل زائل
للهو آونة تمرّ كأنها	قُبَل يُزوّدها حبيب راحل

لعارف بموارد الحياة ومصادرها ، وبمداخلها ومخارجها .

---

(١) سلسلة المحاضرات التي القاها في كلية الآداب في دمشق الاستاذ شفيق بك جبري عضو المجمع العلمي العربي ومدير الكلية المذكورة .

وان الذي يقول :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس وأشهى من ان يمل واحلى
واذا الشيخ قال اف فما مل حياة وانما الضعف ملاّ
آلة العيش صحة وشباب فاذا وليا عن المرء ولّى

لا يغفل عن اسرار انبساط النفس وانشراح الصدر ، وربما أحاط من هذه الاسرار بما لم يحط به أعرف الناس بمقدار الحياة ، وما هذه الأسرار الا الصحة والا الشباب ، واذا المرء لم يرفل من الصحة في برد قشيب ، ولم يتفيأ من الشباب وارف الظلال ، لم يجد للحياة لذة ، نعم لم يجهل ابو الطيب قيمة الحياة وهو حريص عليها لانها شهية :

المرء يأمل والحياة شهية والشيب أوقر والشبيبة انزق

ولقد بكى على شبابه :

ولقد بكيت على الشباب ولمتي مسودة ولماء وجهي رونق
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني أشرق

وفي هذه الدموع دليل على حبه الحياة ، وحرصه عليها ، وربما اشتد هذا الحرص حتى أخرجه في صباه من شيء من الشجاعة ، واقحمه في شيء من ذل الجبن في بعض الحالات ، فمن قوله في مدح الحسين بن اسحق التنوخي وكان قوم قد هجوه ونحلوا الهجاء الى ابي الطيب :

وما أربت على العشرين سني فكيف مللت من طول البقاء

ومنه قوله للوالي وهو في الاعتقال :

دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجلي ثقل الحديد

كل هذا حجة على رغبة المتنبي في الحياة ، وتمسكه بها . ومع هذا فاننا لانجد في شعره اثراً لضياء الحياة وبشاشتها ، فكأن الرجل قد حرم حظه من لذتها ، او كأنه لم يكن له من نضارة شبابه وكمال صحته آلة يستعين بها على ذوق هذه اللذة ، أفكان المتنبي يشتكي صحته ، فكثيراً ماشار في شعره الى نحوله ، ومن هذه الاشارات :

روح تردد في مثل الخيال اذا اطارت الريح عنه الثوب لم يبن

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

ومنها :

جمعت بين جسم احمد والسـ ـقم وبين الجفون والتسهيد

ومنها :

ولا وقفت بجسم مُمسيَ ثالثة ذي أرسم دُرُسٍ في الارسم الدرس

أفكان مصاباً بشيء من الماليخوليا التي نجد آثارها في شعره ، فقد اسودت الدنيا في عينيه ، وقلّ سروره فيها ، وضاع عمره :

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمتنا من سالف الأمم

اتى الزمان بنوه في شبيبته فسرّهم واتيناه على الهرم

واستخفّ بامر الحياة فلم يبال أطال العمر ام قصر :

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقي عيشه مثل ذاهب

وافضى به هذا الاستخفاف الى شيء من القسوة في مواطن البكاء :

أأبكي لموتا على غير رغبة تفوت من الدنيا ولا موهب جزل

وما الدهر اهل ان تؤمّل عنده حياة وان يشتاق فيه الى النسل

نعم لم ينظر الى الدنيا من وجهها الجذل ، وانما نظر اليها من أفقها الكئيب ، ففاض شعره كآبة ، فهو يتصور الموت في كل حالة من حالاته ، في صحته واعتلاله :

وان اسلم فما ابقى ولكن سلمت من الحمام الى الحمام

ومن كان هذا نظره في الدنيا فلا عجب اذا هاجت به الماليخوليا في بعض الاحيان فطلب الموت ، لان الموت هو الذي يشفيه مما يكابده من الم النفس ، وايُّ الم اشدُّ من رؤية الحساد ، ولا سيما اذا كان المحسود مثل ابي الطيب ، يعادونه على فضله الذي يستوجب محبته ، وينام عنهم ولا ينامون عنه :

أعادى على مايوجب الحب للفتى وأهدأ والافكار فيّ تجول

لاعجب اذا طلب المتنبيُّ الموت ، ولقد طلبه لانه فتش عن صديق مخلص له فلم يجده ، وعن عدوٍّ مداجٍ فأعياه ، فالحياة التي ليس فيها صديق مخلص ولا عدو مداج لا يكثر

على رجل مثل المتنبي ان يطلب فيها الموت ، وهو من هو في شدة احساسه واهتزاز اعصابه وسرعة حركة نفسه :

كفى بك داءً ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا او عدواً مداجيا

لا عجب اذا كانت المنايا من اماني المتنبي لانه بين ظهراني رجال ودهم خداع ودينهم نفاق :

فلم ار ودّهم الا خداعا ولم ار دينهم الا نفاقا

ان رجلاً هذا هو نظره في الحياة ، ان رجلاً يستوي عنده قصر الحياة وطولها لانه يرى ان الحياة مصيرها الى الزوال لبعيد عن التفرغ لمغالبة الايام ، والسعي في الحصول على شيء من عظمة الدنيا ، سواء أكانت هذه العظمة في المال ام في الجاه ، نعم ان رجلاً هذا مذهبه من عادته ان يقضي في ظلال الهدوء وراحة البال هذه الايام القليلة التي يعيشها مستهزئاً بكل عظمة ، ساخراً من كل جاه ، لان الحياة في نظره احقر من ان يزاحم عليها ، ان رجلاً من امانيه المنايا لانه لم ير صديقاً مخلصاً له ولا شبه صديق ، ليغلب اليأس عادة على قلبه ، فلا يضرب في مناكب الارض ابتغاء لشيء من عظمة الدنيا ، ولكن المتنبي بعيد عن هذا كله ، وهذا موطن من مواطن تناقضه في أخلاقه فقد كانت حياته تجمع بين الفأل والشؤم ، وتؤلف بين اليأس والرجاء ، وانه ليرى ظلمة الدنيا الى جانبه اذ يسعى الى ضيائها من جانب آخر ، وانه ليهزأ بطول الحياة وقصرها اذ يستنفد وسعه في الوصول الى شيء من ظواهر العظمة في هذه الحياة ، ما اقلق ابا الطيب ، ما اشد اضطرابه :

كريشة في مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق

فكان يغضب على الحياة و يرضى عنها ، بحسب حالات نفسه ، وعلى قدر هياج اعصابه وهدوءها ، لقد غضب على الحياة من الناحية التي رآها مسوّدة ، ولكنه سعى في الوصول الى الذي خالج قلبه في هذه الحياة سعياً تقصّر دونه سوابق الاقدام ، وربما كان يحط في بعض سعيه الى طبقات المستعطين فمرة كان استعطاؤه صريحاً :

أمطر عليّ سحاب جودك ثرّة وانظر اليّ برحمة لا أغرق

ومرة كان تعريضاً :

فما بفقير شـام برقك فاقة ولا في بلاد انت صيبها محل

وحيناً كان الاستعطاء مشتملاً على شيء من التفنن :

فان نقل : ها فعادات عرفت بها او : لا ، فانك لا تسخو بلا فاكا

نعم سعى في هذا كله ما كلّت عزائمه ولا فترت هممه ولا وجد اليأس الى قلبـه سبيلاً ، فقد عمل لدنياه كأنه يعيش ابداً ، وكان مذهبـه في عمله : الدنيا لمن غلب ، حاول ان يغلب فما قصّر سخر من كل نائبة نابتـه ، وذلل كل عقبة اعترضته ، فلو تجسم العزم لكان ابو الطيب جسمه ، ولو تصوّر العمل لكان صورته الناطقة ، انشعره ليفيض رجولية ، ان شعره انما هو شعر الرجل القوي على متاعب الحياة ، يتطاول له عدوه المبين فلا يخضد من شوكته ، ولا يضعف من عزمه ، واذا نبـا به مكان انتجع مكاناً غيره ، سواء أكان منتجعه بعيداً ام كان قريباً ، ما اعظم المتنبي في هـذا الجلد على التمرس بالآفات ، والمطاعنة للايام فيكاد يكون المثل الأعلى في النزاع والمغالبة ، اوتي من العزم ما صغّر اليه كل عظيم من عظائم الدنيا ، حتى نشأت له من هذا كله قوة منيعة استعان بها كل حيـاته ، يحبس الرجل في سبيل امر من الامور ، فيخرج من حبسه ، ويضرب في الارض لا مطية له الا النعل والا الخف ، فيمدح من يمدح ، ومن ممدوحيه من لا يعطيه على قصائده الا ديناراً ، فيصـبر ولا يقطع امله من الحياة ، ويتصل بسيف الدولة فيغرق في نعمه ، فيكيد له من يكيد ، ويحسدونه ، فيترك سيف الدولة و يرجع الى ديدنه في السعي والجهد ، فيأتيه وعد السودان فينجو من شرهم ، ويقصد حضرة كافور الاخشيدي فلا يكرمه اكرام سيف الدولة ، ولا يسمح له بالجلوس في مجلسه ، و يبث عليه العيون والأرصاد ، ويضمر قتله ، فينفلت منه و يعود الى سعيه ، فيتآمر عليـه عبيده فيجز على احدهم ، و يغلب على امرهم ، و يعود الى العراق فيثور عليـه شعراء العراق ، فيهرب من بغداد و يصل الى بلاد فارس ، ثم يستأذن عضد الدولة في العودة الى وطنـه فيحذرونه من الموت فلا يعبأ بالموت و يهجم عليه فيموت . اظن ان في هذه الامور كلها سلسلة حياة تكاد تكون منقطعة النظير في الصبر على الشدائد ، والاستعداد لمطاعنة الدهر ، واظن ان الرجال الذين يصبرون بعد الصدمة الاولى من صدمات الحياة قليل عددهم ، ان كثيراً

من الناس تضعف عزائمهم في اول ضربة من ضربات الزمان ، فالمتنبي من هؤلاء الرجال الذين مارسوا الايام ومارستهم ، وصارعوها وصارعتهم ، فما استسلموا ولا انقادوا ، يباغتهم الدهر من ناحية فيستعدون له من ناحية ثانية حتى تمل الايام طوال نزالهم ، فتلقي اليهم سلاحها وتنطوي دون عزائمهم ، فلو صوّر العراك والغلاب والمراس لكان المتنبي صورة هذه الامور كلها ، فكأنه جعل مذهبه في سيرته ما جرى على لسانه في بعض شعره :

فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

هنا تظهر رجولية المتنبي ، هنا يكون ابو الطيب القدوة لمن يريد ان يقتدي به من الاعاظم الذين لا يكاد يظهر فضلهم حتى تتضافر عليهم المكايد ، وتتواطأ عليهم الغوائل فاذا جبنوا واستسلموا اطفأ الحساد من نورهم ، واذا شجعوا ومضوا في سبيلهم ملّ هؤلاء الحساد حسن ثباتهم وماتوا من سخرية الذين يحسدونهم فلا يجدون الى اطفاء النور سبيلا ٠

في شعر ابي الطيب رجولية تفيض في كل جنبة من جنبات هذا الشعر المنيم ، وما هذه الرجولية الا صورة روحه ، ولقد ابت هذا الروح الا الظهور في كل مذهب من مذاهب شعره ، فسواء عليه أمدح أم هجا ، وسواء عليه أتغزل أم بكى ، ان روحه لتغلب عليه في أماديحه واهاجيه ، وفي غزله وبكائه ٠ ان هذه الروح ابت الا الوضوح في كل حال من حالاته ، وفي كل طور من اطواره ، سواء أكان فقيراً أم كان غنياً ٠ انكم لتجدونه يبكي شقوته و يضجر من رقة حاله وخشونة عيشه ، ومع هذا فان روحه لا تغفل عن التغني بالتكرم ، وعن التنديد بالذل ٠

فبعد ان يقول :

الى اي حين انت في زي محرم وحتى متى في شقوة والى كم

لا يلبث ان يقول :

والا تمت تحت السيوف مكرّما تمت وتقاس الذُلّ غير مكرّم

فثب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جني النحل في الفم

وما كان المتنبي الا صادقاً في قوله ، ولقد امتلأ شعره من هذه النزعات السامية والوثبات الكريمة فما خلت قصيدة من قصائده من هذه الروح العالية ، وبينا نجده يقول :

ضاق صدري وطال في طلب الر — زق قيامي وقلّ عنه قعودي

اذ نجده يقول :

عش عزيزاً او مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

فاطلب العزّ في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود

فالعز والمجد والعلياء وكرم النفس الفاظ جرت على لسان ابي الطيب المتنبيء في كل شعره فكانت تفصح عن حقائق روحه وبواطن نفسه ، ولقد ادّى به تغنيه بهذا العز وبهذا المجد وبهذه العلياء الى مواطن الموت ، مثّلوا له الموت وحذّروه منه فما حذره ولا خافه هجم على الموت خوفاً من ان يقال فيه انه جبان ، فما أبعد اباالطيب عن احتمال الأذى ورؤية جانيه :

واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوى به الاجسام

ذلّ من يغبط الذليل بعيش ربّ عيشٍ أخفّ منه الحِمام

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميتٍ ايلام

ما أبعد اباالطيب عن احتمال الأذى ، لقد غرق في نعيم سيف الدولة وفي مكارمه ومع هذا كله لما عبث به سيف الدولة واحسّ المتنبيء بالانقباض عنه مالبث ان عاف هذا النعيم وهذه المكارم :

ومامنزل اللذّات عندي بمنزل اذا لم أبجّل عنده وأكرّم

سجيّة نفس ما تزال مليحة من الضيم مرمياً بها كل مَخْرِم

نعم يأبى ابوالطيب الا ان أُبجّل والاّ ان يكرّم واذا سكت في حضرة كافور عن شيء من هذا التبجيل والتكريم فما معنى هذا ان الرجل هانت عليه نفسه ، وانما طمع وهو في حضرة كافور في شيء من الملك شغل باله طول حياته ، فصانع كافوراً ارادة الوصول الى هذه الولاية التي أملها ولما احسّ بالشر و بالاذى ولّى عن كافور .

أبت هذه الروح العالية الا ان تظهر على شعره في كل مذهب من مذاهب هذا الشعر ، لقد ظهرت في أماديحه ، فاذا مدح أعرب عن روحه قبل ان يصوّر روح الممدوح وربما جعل للافصاح عن روحه في اماديحه النصيب الاوفى :

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتضريب اعناق الملوك وان ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك في الدنيا دويًّا كأنما ... تداول سمع المرء انمله العشر

نعم لم يغفل عن اظهار روحه في اماديحه حتى في اماديحه في سيف الدولة :

وانا لنلقى الحادثات بانفس ... كثير الرزايا عندهن قليل

يهون علينا ان تصاب جسومنا ... وتسلم اعراض لنا وعقول

ولقد ظهرت روحه في مراثيه اي في المواطن التي يذهل فيها الانسان عن كل عظمة وعن كل عز ، ففي رثائه لجدته وقلبه ملتهب ، ودمعه منسكب لم يغفل عن روحه :

فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ... ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

روحه غالبة عليه فأنتم تعلمون مقدار محبته لجدته ومقدار اسفه على وفاتها ومع هذا فلم تنسه وفاتها روحه فكأن في باطنه شيئًا يخزه حتى يظهر وما هذا الشيء الذي يحركه الا روحه ، وكذلك حاله في غزله :

وقد طرقت فتاة الحي مرتديا ... بصاحب غير عزهاة ولا غزل

لا اكسب الذكر الا من مضاربه ... أو من سنان أصم الكعب معتدل

وكذلك شأنه في أهاجيه :

ويلمها خطة ويلم قابلها ... لمثلها خلق المهرية القود

وعندها لذ طعم الموت شاربه ... ان المنية عند الذل قنديد

ما اعظم روح ابي الطيب ! ما اظهرها على شعره !

دمشق : ٣ ايار سنة ١٩٣٠

المحاضرة الحادية والعشرون

فلسفة المتنبي

- ١٣ -

علمنا بطائفة من اخبار المتنبي وأحطنا بشيء من جملة اخلاقه وروحه وطبيعة حسه وعاطفته ، بقي ان نعرف درجة عبقريته وخصائص هذه العبقرية ، هل يخلد شعر المتنبي ما هو السر في خلوده . وقبل ان أتفرغ لهذا كله ارى ان الواجب علي ان انظر في فلسفة المتنبي .

اشار القاضي الجرجاني والثعالبي الى ان اباالطيب خرج عن رسم الشعر الى طريق الفلسفة واضاف الثعالبي الى هذا الكلام ان المتنبي امتثل الفاظ المتصوفة واستعمل كلماتهم المعقدة ومعانيهم المغلقة فمنه قوله :

نحن من ضايق الزمان له فيك وخانته قربك الايام

حتى قال الصاحب « ولو وقع هذا القول في عبارات الجنيد والشبلي لتنازعه المتصوفة دهراً طويلاً »

ومنه قوله :

يا ايها الملك المصفى جوهراً من ذات ذي الملكوت اسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيه فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

ومنه قوله :

ولقد رمت بالسعادة بعضاً من نفوس العدي فادركت كلا

فالجوهر المصفى واللاهوت والبعض والكل من الفاظ رجال الفلسفة والمنطق .

ولمّح الى طائفة من اسماء اطباء اليونانيين وحكمائهم امثال جالينوس وبقراط ورسطاليس وبطليموس .

وجرى في شعره ذكر بعض المذاهب الفلسفية .

من هذه المذاهب :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر ان المانوية تكذب

ومنها :

الا فتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

ومنها :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم الا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

واظن ان شيوخ ابن خلدون لم يعيبوا شعر المتنبي بمخالفته الاساليب العربية الا بسبب لجوئه الى هذه المصطلحات الفلسفية واشباهها لان الشعر كما قلت في « سحر العبقرية » غرضه ان يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحامى التجريدات وعبارات العلم واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر فهي تجعل الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغ المحسوسة ولكنكم ستجدون في فصل الكلام على شعر المتنبي ان ابا الطيب اذا خلد فان خلوده سيكون من الناحية التي عابه بها شيوخ ابن خلدون، فاذا خلد المتنبي فان الذي يخلده انما هي تلك الحكم الرائعة التي استفاضت في شعره فاستشهد الناس بها بحسب ما يقتضيه مقام الاستشهاد فكأن ابا الطيب لسان حال البشر باجمعهم . فقد يقذف المتنبي في بيت او في بيتين مذهباً فلسفياً او علمياً يشتغل به المفكرون كل حياتهم من هذه المذاهب قوله :

فقل ما يلؤم في ثوبه الا الذي يلؤم في غرسه
من وجد المذهب عن قدره لم يجد المذهب عن قنسه

ومنها :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو انها الاولى لراع الاسحم

ومعنى هذا البيت : راعتك الشعرة البيضاء التي ظهرت في رأسي ولو ان الشعر يكون أبيض في اول امره ثم يسود لراعك الشعر الاسود ، فكأنما ابو الطيب أراد ان يمثل للناس على نحو (بيرون) في القديم ان آراء الخلق سريعة التبدل والتغير مما يدل على شك

الناس في حقائق الامور ، اعتاد البشر ان يروا الحسن في الشعر الاسود والقبح في الشعر الابيض ولو تعودوا ان يروا المحاسن في الشعرة البيضاء والمساوئ في الشعرة السوداء لما كان لاشتعال الرأس شيباً اثر شنيع في العيون فكأنما لا حقائق مطلقة في العالم وانما الحقائق نسبية للامر الواحد كما قال « اناتول فرانس » مشاهد متفاوتة ومظاهر متباينة ، انظر الى هرم منفيس في طلوع الشمس ثم انظر اليه في غروبها فانك تجده في الصباح مخروط الشكل ينبسط عليه ضياء وردي ، وتجده في المساء مثلثاً اسود اللون ومن الذي ينفذ فكره الى مادة هذا الهرم فالعادة والمصطلح هما سبب كل عمل في هذه الدنيا ٠

قد تكثر هذه النظرات الفلسفية في شعر المتنبي ولكني أمرّ بها كما مرّ بها ابو الطيب نفسه لانها لا تؤلف الفلسفة التي أريد الكلام عليها ، اي لا تؤلف فلسفة المتنبي ، وانما هي خطرات قد يجوز ان يكون اقتبسها من الكتب المترجمة او دلّه عليها عقله الكبير فلم يتوسع فيها وانما الذي توسع فيه النظر في الحياة واخلاق اصحاب هذه الحياة فلننظر في صورة الحياة التي يريدها ابو الطيب ٠

صوّر ابو الطيب المتنبي الحياة في شعره في اشرف صورها وعرضها في اكرم معارضها فهو يريدها سالمة من كل ضيم ، بعيدة عن كل ذل فلا تجدون في شعره الا الفاظ العز والمجد والكرامة وماتقتضيه هذه الالفاظ من تعب الاجسام وسفك الدماء ، فالمعالي لاتكون رخيصة فلابد من ابر النحل دون الشهد ، ولابد من مرارة الزمان دون حلاوته ، ليس الفقر ان تغث المآكل انما الفقر ان تغث الكرامة ، فلا تكاد عيشة العز تفارق صورها شعره ، وان كان هذا العز في جهنم وان كان الذل في جنات الخلود ، علامَ تخاف الموت فقد يقتل العاجز وهو آمن في سربه ، وقد يوقّى الشجاع وهو غارق في الدماء ، علامَ تخاف الموت والموت لابد منه وسواء أأفرط الرجل في سلمه ام أفرط في حربه ، ان غايته الموت فاذا كان الموت غاية كل واحد فلمَ تخفق الافئدة من الرعب فالحتف في العز محبوب والذل في طول العمر بغيض ٠

صوّر الحياة في اكمل صورها ، ينبغي للناس ان يهون عليهم رزء جسومهم اذا سلمت في هذا الرزء عقولهم واعراضهم لاتحتمل الاذى ، لا تغبط الذليل ، لا تهن ٠ هذه هي الوصايا التي لم يخل منها شعره ، دع نفسك تأخذ مايمكنها اخذه من هذه الدنيا ، ولكن

لاتحسبن هذا الاخذ في زق اوقينة ، فما المجد الا السيف والفتكة البكر ، ما المجد الاضرب أعناق الملوك وترك دوي في الدنيا ، اسع الى المجد ما استطعت اليه سبيلاً ، اطلب المال في المجد ، اطلب المجد في المال ، خلف ذكراً طيباً فالذكر عمر ثان ، اكسب هذا المجد من مضارب السيف ومن سنان الرمح ، قاتل في سبيل العلى ، قاتل في سبيل السلم ، السعادة في سفك الدماء ، ابن المالك على الاسل ، سلم شرفك من الاذى باراقة الدم على جوانبه ، اطلب حقك بالطعن بالضرب ، الدنيا نزاع ، والدنيا لمن غلب ومن استطاع ان يلتمس الاشياء اغتصاباً لم يلتمسها سؤالاً ، اذا غامرت في شرف فلا تقنع بما دون النجوم فالموت واحد في عظائم الامور وفي صغائرها ، لا تتعلل بالآمال ، لا تقنع بالاقلال ، لا تسكر فمعاطاة الصفائح والعوالي الذ من المدام ، الموت في الوغى عيش ، لا تداج ، لا تقصر في امرك ، لا تعجز ، لا تتكل على احد ، اياك والنقص اذا كنت قادراً على التمام ، جالس كتبك فان الكتاب خير جليس ، اكرم الكريم فتملكه ، لا تكرم اللئيم فيتمرد ، احرص على الحياة فان الحياة شهية واحرص على اللذات ، لتكن في حرصك على هذه الحياة وعلى هذه اللذات مجلاً مكرما ، اياك والغواني فانهن ضياء في بواطنه ظلام ، لا عهد لهن ، يحقدن فلا يبقى في قلبهن رضى ويرضين فلا يبقى في قلبهن حقد . هذه هي الحياة التي يريدها المتنبي ، انها الحياة سامية ولكنها ممزوجة بالدم ، بعيدة عن الهدوء والسكينة ، مملوءة بالقلق والاضطراب ، كلها نزاع ، وكلها غلاب ، وهل الدنيا الا غلاب . ان الحياة التي يريدها ابو الطيب انما هي حياة القوة وهل يكون عزيز الجانب غير القوي ، قاتل ، غالب ، هذا هو الهدف الاعلى الذي يرمي اليه المتنبي ، وقد قاتل وغالب كل حياته ، فما كانت فلسفته الا بنت خلقه وطبعه ، جمعت هذه الفلسفة بين سلطان المادة وكرامة الادب ، فلا خير في المال اذا لم يزينه المجد ولا خير في المجد اذا لم يؤيده المال وهل نكسب هذا المجد الا بعد ازعاج البدن واقلاق الروح وهل نصل الى هذا المال الا بعد ذوق مرارة الموت ولكن حلاوة هذا المجد وهذا الموت تنسينا مرارة الايام التي انقضت في كسب المجد والمال .

هذه هي الحياة التي يريدها ابو الطيب ومن كان نظره في الحياة مثل نظر ابي الطيب فأخلق به ان يكون متشائماً لان المجد والعز والكرامة كل هذا يقتضي مكارم الاخلاق واين مكارم الأخلاق في زمن لا صديق فيه مخلص ولا عدو مداج اين مكارم الاخلاق

في زمن ودّ الناس فيه خداع ودينهم نفاق عالمهم فدم وحازمهم وغد وبصيرهم اعمى وشجاعهم قرد بلي المتنبئ بهم بلاء الورد بانوف لا يصلح لها الخشاش ليس من العجب ان يكون المتنبئ متشائماً اذا كان في زمن وقته فيه ضائع ليس من العجب ان يحذر الناس انهم لا يرحمون فلا ترحمهم روّ رمحك من دمائهم اقتلهم ولا اثم عليك ليس من العجب ان يرى ابو الطيب الدهر غير اهل ان تؤمل عنده حياة وان يشتاق فيه الى النسل .

من مزاجه السوداوي ومن شبابه المضطرب ، واكتهاله القلق ، ومن فرط حسه وعصبيته ، ومن الذي لاقاه في زمنه من الحسد تولد شيء من التشاؤم في خلق المتنبئ ، والتشاؤم كما قال فيه الاستاذ «فاكه» مرض خلقي لا يحرم صاحبه العبقرية على شرط ان يكون المصاب به حاصلاً على النصف الآخر من هذه العبقرية وهو الخيال المديد .

ماهو التشاؤم ؟ ان هو الا ادراك الحياة من أوسع جوانبها ، ومن اشد نواحيها ظلمة ، واذا لم يكن هذا التشاؤم صادقاً كان ضرباً من السخرية ، واذا كان صادقاً ولم يكن لصاحبه عقل كبير كان نوعاً من الهزء ، لانه قد يفضي بالمبتلي به الى الشكوى من آلام حقيرة يقاسيها كل الناس ، ولكن تشاؤم رجل مثل ابي الطيب صاحب عقل كبير وخيال مديد ليس فيه شيء من المهزلة .

وعن هذا التشاؤم وعن هذا الالم الذي قاساه المتنبئ كل حياته صدرت افكار سامية من جملة هذه الافكار : العبقرية تجعل صاحبها في شقاوة :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ما أصدق هذه الحكمة ! انبحث عنها قليلا :

مليك السيارات في هذا العصر (فورد) ذهب اسم سيارته في آفاق العالم كله : يكاد فورد يستصفي ثروة الدنيا فهو يلعب بالذهب لعباً ، انه ليستطيع ان يدرك امانيه كلها بالمال فلا يشك احد في عظم سلطانه ، فقد اذعنت له الدنيا بحذافيرها . ومليك العلم في هذا العصر (اديسون) لقد أدهش العالم كله بمخترعاته ، فقد ضبط أصوات البشر وقرّب بين متباعد المسافات بعد ان قاوم الطبيعة فهو يجد في معمله اكبر لذة يجدها عالم في اكتشاف شيء ، يعترف بسلطانه العلماء بجامعهم . لاريب في ان (فورد) و(اديسون) من ذوي العقول الذين أشار اليهم المتنبئ في شعره ، فهل شقيا في نعيمها كما قال المتنبئ ، ام هما نعما على

خلاف رأي ابي الطيب ، لننظر الى رأي كل منهما في سعادة الآخر ·

يقول (اديسون) في سعادة (فورد) :

رأيت حديثاً كيف ركبت آلات آخر سيارة من سيارات (فورد) لقد رمى بسيارته هذه الى انحاء العالم ، وقد وفق في مخترعه توفيقاً عظيماً ، فكان يجب على فورد ان يكون سعيداً كل ايامه بسبب توفيقه هذا ، ومن موجب الأسف ليس له شيء من هذه السعادة ان (فورد) سيكون سعيداً زمناً قليلاً لانه من هؤلاء الرجال الذين لا يدوم سرورهم طويلاً ان عقله ليعذبه في كل حين لان هذا العقل تشغله امور حديثة لاحد لها ، فاذا تم له امر منها فرح به ، ثم فكر في امر آخر وعلى هذا فانه يجري من ارب الى ارب من غير ان يكون راضياً ·

فاذا لم يستطع الرجال ان يحددوا مطامعهم فانهم لا يستطيعون ان يكونوا سعداء فالذي يجدر بنا ان نحسدهم في هذه الحياة انما هم الرجال الذين أبعد همهم ان يقبضوا على فراشة ، أسعد الناس انما هو العبد الذي يعيش وليس في قلبه مطمع من المطامع ·

يظن بعضهم ان المستر (كوليدج) كان سعيداً وهذا خطأ فقد قضيت عنده بضعة أيام فكان كل همه ان يتولى رئاسة الجمهورية فلما ألقيت اليه مقاليد هذه الرئاسة كان كل همه ان يخرج منها وان يغادر القصر الأبيض خوفاً من تبعاته ·

اما انا فقد كان أعذب ايامي تلك الايام التي كان عمري فيها اثني عشر عاماً فلم يكن لي فيهـا مطمع او هم وكنني لما كبرت أضعت السعادة فاذا رميت بنظري الى الاثنين والثمانين عاماً التي عشتها وجدت فيها اياماً كنت أستطيع ان أكون في خلالها سعيداً كل السعيد غير اني كنت فيها أشقى الأشقياء ·

و يقول (فورد) في سعادة (اديسون) :

أرى (اديسون) يعد عدة السعادة الكاملة لانه غارق في مشاغله فليس به حاجة الى ان يجعل الشغل واسطة العيش وهذا السعادة كلها على خلاف ما كان يذكره العالم الكبير من انه لاسعادة في هذه الدنيا ، كان سعيداً في طفولته وشبيبته فقد كان عاملاً في البرق والصحافة وصار عالماً في شبابه ، صاحب مكتشفات عظيمة ، حصلت له اسباب العمل في كل حين ، فقد أراد ان يجعل الليل نهاراً فكتب له التوفيق ، وشاء ان يردد اصداء

الصوت البشري فتمت مشيئته ، لقد وجد لذته كلها في هذا الجهد العظيم ، لان الرجل الذي يعمل من اجل غايات شريفة ، ان الرجل الذي يعمل من اجل العمل نفسه ، انما هو سعيد كل السعيد .

فاذا كان (فورد) يغبط اديسون بطراز حياته ، وهو من هو في الثروة ، واذا لم يكن (اديسون) سعيداً في ايامه وهو من هو في العلم ، فما أصدق ماقاله المتنبيء من ان صاحب العقل يشقى بسبب عقله في النعيم ، وان اخا الجهالة ينعم في شقاوته .

وانكم لتجدون في شعر المتنبيء كثيراً من أشباه هذه الحكمة الرائعة استنبطها من الحياة نفسها ، فكأن الحياة قد عرضت عليه صورها المختلفة وأشكالها المتباينة فاستنبط من خيرها وشرها ومن حلاوتها ومرارتها ومن كرمها ولؤمها امثالاً قذفها في أبيات وانصاف أبيات ، فالرجل قد جرّب كثيراً حتى احكمته التجاريب وتغلغل في بواطن القلوب فأعطته مقاليد أسرارها ، فلا يكاد يحدث حادث في هذه الحياة الا ونجد في شعر ابي الطيب ما يمثل هذا الحادث ، فما أقرب الحكمة من طرف لسانه ، وما أجراها على شق قلمه ، والحكمة اذا كانت بنت التجاريب كانت أعلق بالأذهان ، وأسير في الايام ، والمتنبي ابن التجاريب :

اذا ما الناس جربهم لبيب فاني قد أكلتهم وذاقا

دمشق : ١٧ أيار سنة ١٩٣٠

عبقرية المتنبي (١)

- ١٤ -

أحفظ من تسع عشرة سنة بيتاً من الشعر قاله الشاعر الفرنسي « بوالو Boileau » في الشاعر « مالرب Malherbe » وهذا هو صدر البيت : حتى جاء مالرب ... واذكر انا كنا ندرس في مدرستنا تاريخ الأدب الفرنسي الذي وضعه الاستاذ « دوميك Doumic » صاحب سر الاكاديمية وقد افضى بنا الدرس الى الفصل الذي عقده «دوميك» في الكلام على «مالرب» فالاستاذ «دوميك» يقول في تاريخه ان «حتى» هذه تنقص من مقادير من تقدم « مالرب » من الشعراء .

ولما وقفت على كلمة ابن رشيق الشائعة : (٢) ثم جاء المتنبيء فملأ الدنيا وشغل الناس خطرت ببالي في الحال كلمة «بوالو» : حتى جاء مالرب ... فقلت في نفسي أفيجوز لي ان أقول في «ثم» هذه ما قاله «دوميك» في «حتى» تلك . أفيجوز لي ان اقول ان كلمة ابن رشيق تنقص من مقادير من تقدم المتنبيء من الشعراء أفيريد ابن رشيق ان يقول ان المتنبيء عفّى على آثار من سبقه .

الصحيح ان ابا الطيب المتنبيء كان مشغلة للناس متعبة لهم ولكن هل كانت عبقريته وحدها السبب في شغله الناس أفلم يكن لحوادثه تأثير في هذا الشغل أفلم يكن لاتصاله بسيف الدولة وبكافور الاخشيدي و بابن العميد وبعضد الدولة اثر في هذه الشهرة الشائعة أفلم يكن في تزاحم الملوك والامراء والوزراء عليه وتنافسهم فيه عامل من عوامل هذه الشهرة وعلى الخصوص فان في جملة هؤلاء المتزاحمين رجالاً علت منازلهم في الادب كابن العميد مثلاً او كالصاحب ابن عبّاد الذي لم يكن نصيب من أماديح المتنبيء أفلم يكن في

---

(١) هذا الفصل والذي يتلوه لم أحاضر بهما في كلية الآداب وانما كتبتهما في اثناء طبع المحاضرات اي بعد عطلة الكلية أتماماً للكلام على المتنبيء .

(٢) العمدة — الصفحة ٦٤ .

تضافر اكابر رجال اللغة على شرح ديوان المتنبيء وفي مقدمتهم ابن جني عامل من عوامل شهرة ابي الطيب ان شاعراً يقول فيه الثعالبي[1] : فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس ولا اقلام كتّاب الرسائل أجرى به من السن الخطباء في المحافل ولا لحون المغنين والقوّالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين وقد الفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه والافصاح عن ابكار كلامه وعونه وتفرقوا فرقاً في مدحه والقدح فيه والنضح عنه والتعصب له وعليه ... » وان شاعراً يقول فيه القيرواني[2] : قد شغلت به الالسن وسهرت في اشعاره الاعين وكثر الناسخ لشعره والآخذ لذكره والغائص في بحره والمفتش عن جمانه ودره وقد طال به الخلف وكثر عنه الكشف وله شيعة تغلو في مدحه وعليه خوارج تتعايا في جرحه ... » ان شاعراً هذا هو شأنه في الادب وهذا هو شأن الادباء فيه لا بد له من ان يملأ الدنيا و يشغل الناس ·

ولكن هل ينبغي لنا ونحن ندرس شعر ابي الطيب المتنبيء ان نتقيد بما تقيد به المتقدمون افلا يليق بنا ان ننسلخ عن عوامل الشيعة التي غلت في مدحه والخوارج التي أفرطت في جرحه حتى يكون نظرنا في شعره صحيحاً أفلا يليق بنا ان ننظر الي هذا الشعر من وجهه الشفّاف حتى يتبين لنا ماوراءه وسواء عليّ أكنت من المعجبين بابي الطيب العابدين له ام كنت من الذين يستوي عندهم ابوالطيب وكثير من الشعراء لا استطيع ان امر بفلتات عبقريته دون الاشارة اليها او ان امرّ بسحر هذه العبقرية دون التنبيه عليه ·

فلا بد لنا اذا نظرنا في طبائع عبقرية المتنبيء وفي خصائصها ونقبنا عن محاسنها ومساوئها من النظر في آفاقها والسماء التي حلّقت في عليائها حتى ينكشف لنا كل أفق على حدة فنرى ألوان هذا الأفق سواءٌ أكانت هذه الألوان كامدة ام كانت زاهية نضرة لابدّ لنا من النظر في مذاهب ابي الطيب كلها : في غزله وفي بكائه وفي أهاجيه

(١) يتيمة الدهر : الجزء الاول ص ٧٨ ·

(٢) اعلام الكلام : ص ٢٥ ·

وفي أماديحه وفي وصفه على اختلاف اشكاله وفي حكمه ومن جملة هذه المذاهب تستبين لنا طبائع شعر المتنبي ٠

اول ما أتعرض له من مذاهب المتنبي انما هو الغزل هذا الغزل الذي صدّر به معظم قصائده اتباعاً لاصول بنى عليها الشعراء من قبله فلم يخرم القياس ولا خرج عن الاساس على انه لم يؤثر عنه انه عشق وقد عرضنا حوادثه كلها من ميلاده الى مقتله فما وجدنا فيه ميلاً الى شيء من العشق فعلىمَ هذا النسيب في صدور قصائده يقول الاستاذ «فاكه» في معرض كلامه على «هوغو» : اذا لم تكن أبيات الغزل أبيات شاعر عاشق كانت مقلقة مضجرة وقد تكون هذه الابيات حسنة فلمَ عرض المتنبي غزله للاضجار والاقلاق وان كان في غزله شيء من الحسن ٠

لم أجد في كثير من نسيب المتنبي الا ما أجده عادة في الشعراء المتغزلين الذين جاؤوا قبله ما خلا الشعراء العشاق الذين قال فيهم القيرواني[1] : قد استحوذت الصبابة على أفكارهم واستغرقت دواعي الحب معاني أشعارهم فكل مشغول بهواه لا يتعداه الى سواه » لم اجد للمتنبي في غزله الا الصور التي صورها كثير من الشعراء قبله كمناجاة الديار وكاستيقاف الصحب عليها او كالضجر من نيران القلب ومن الشيب وماشا كل ذلك فهذه صور مألوفة ومذاهب معروفة لم يكن للمتنبي فيها ابداع ولا اختراع وانما مشي فيها على آثار غيره ٠

ففي فؤاد المحب نار جوى	أحرّ نار الجحيم أبردها
شاب من الهجر فرق لمته	فصار مثل الدمقس أسودها

قرأت مرة رواية وأظنها : رغائب يوحنا سرفيان وهي من روايات «اناتول فرانس» اذكر ان يوحنا هذا وهو بطل الرواية احب فتاة رومانية ممثلة وقد ملك عليه حبه عقله فكانت الدنيا في نظره صورة والحاناً اي كانت الدنيا في نظره صورة الممثلة التي شهد تمثيلها وألحانها التي سمعها فكان يهيم على وجهه في جنبات الليل البهيم فلا يزال هائماً حتى يصل الى دار حبيبته فيتأمل في أطرافها المظلمة ويقبّل بابها وربما أغمي عليه فلا يفيق

(١) اعلام الكلام ص ٢١ ٠

الا على صوت هذه الممثلة فالعاشق كل العاشق من نظر الى حبيبه نظرة « يوحنا » هذا الى فتاته أفيشتمل غزل المتنبي على صور مثل هذه الصورة أفكان المتنبي في غزله مثل اولئك العشاق الذين تعرض لهم الطبيعة مشاهد كثيرة فلا يحفلون الا بالمشهد الذي استولى على فكرهم وتسمعهم اصواتاً متباينة فلا يطرب بهم الا صوت حبيبهم اظن انه يصعب على الباحث ان يجد في غزل المتنبي شيئاً من هذا كله .

انا لم أجد في كثير من غزل ابي الطيب الا ما أجده في غزل كثير من الشعراء فاذا شبه القوام شبهه بالغصن و اذا شبه الوجه شبهه بالشمس اوالقمر واذا شبه الشعر شبهه بظلام الليل فمن هذا الشكل قوله :

غصن على نقوي فلاة نابت شمس النهار تقل ليلاً مظلما

فالألوان في غزل المتنبي مرددة والأصوات مكررة فالصور التي صورها انما هي صور عتيقة بالنسبة الى عصرنا هذا وبالنسبة الى عصر المتنبي نفسه فأي ابداع في تشبيه الخد بالورد وتشبيه العين بعيون المها او بالسيوف :

كم قتيل كما قتلت شهيد لبياض الطلى وورد الخدود
وعيون المها ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود

ومن هذا القبيل قوله :

من طاعني ثغر الرجال جآذر ومن السلاح دمالج وخلاخل
ولذا اسم اغطية العيون جفونها من انها عمل السيوف عوامل

فلم يتحام ابو الطيب المورد العام الذي ازدحم عليه كثير من الشعراء المتغزلين ولا ارتفع عن السماء التي حلق فيها هؤلاء الشعراء فلم يخل معظم غزله من الاضجار والاقلاق لان هذا الشعر لم يصدر عن قلب تيمه الحب فالصور التي صورها انما هي صور بالية لاتهز المخيلة فما مثلها الا كمثل الرماد الذي يبقى من النار الهامدة . وعلى الرغم من قوله في بعض شعره :

جهد الصبابة ان تكون كما أرى عين مسهدة وقلب يخفق

لم أجد في شعره اثراً لسهد عينه وخفقان قلبه .

لولا ظباء عدي ما شغفت بهم ولا بربربهم لولا جآذره

من كل احور في انيابه شنب خمر يخامرها مسك تخامره

نعج محاجره دعج نواظره حمر غفائره سود غدائره

فهذه نغات كثيراً ما رددها الشعراء قبل المتنبي وربما كان لهم في الاجادة فيها نصيب اوفى من نصيب ابي الطيب فقد سلك المتنبي في غزله طريقاً كثر من سلكه حتى شاركه فيه غيره من الشعراء فلم يتجاوز مذهبهم ·

وقد تعوزه رقة العاطفة في بعض غزله فهو لا يشبه اولئك العشاق المتيمين الذين يفنون في عبادة من يعشقونهم ولكنه من هؤلاء العشاق اصحاب القلوب القاسية الذين اذا رقد احبابهم وسهروا هم في التفكر فيهم أسفوا على لياليهم التي تقضت في هذا التفكر :

بئس الليالي سهدت من طرب شوقاً الى من يبيت يرقدها

فان الضنى الذي يضناه في الهوى انما هو مثل السم في الشهد واللذة التي يجدها في هذا الضنى انما هي لذة جهل :

ضنى في الهوى كالسم في الشهد كامناً لذذت به جهلاً وفي اللذة الحتف

فهنا العقل يملي عليه ولا اثر في هذه الامالي للعاطفة الرقيقة على ان له من الابيات ما يدل على فنائه في حبيبه :

زبدي اذى مهجتي ازدك هوى فأجهل الناس عاشق حاقد

ينظر المتنبي في بعض غزله الى الحب نظر الفيلسوف المحيط بدقائق هذا الحب فلا يكاد يخفى عليه امر من اموره ينظر اليه نظر الفيلسوف الذي يعلم ان المرء يعشق عرضاً من دون ان يدري لماذا يعشق ولكنه اذا عشق رحل عقله :

وما هي الا لحظة بعد لحظة اذا نزلت في قلبه رحل العقل

ومنه قوله :

الى مَ طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

ومنه قوله :

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضاً نظرت وخلت اني أسلم

فعقله في غزله اكثر من عاطفته والحب لا عمل فيه للعقل وانما هو ابن العاطفة على انه يعلم ان الحب هو الذي يغلب على اللسان حتى لا يقدر على وصف ما في قلب صاحبه :

الحب ما منع الكلام الالسنا والذ شكوى عاشق ما اعلنا

نعم هذه هي حقيقة الحب فانه يغلب على صاحبه فلا يدري ما يقول ولكن المتنبيء لم يغلب عليه هذا الحب وانما مثله كمثل الفيلسوف الذي يريد ان يظهر اخلاق المرأة في الشعر لا كمثل العاشق الذي يحب ان يظهر دقائق العاطفة في شعره :

اذا غدرت حسناء وفت بعهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما يضل بها الهادي و يخفى بها الرشد

فالمتنبيء لم يضل باخلاق النساء .

على انه قد وردت في طائفة من غزله ابيات نكاد نلمس فيها اثر العاطفة ولست أعني بهذه الابيات قصيدته المشهورة :

من الجآذر في زي الأعاريب حمر الحلي والمطايا والجلابيب

التي قال فيها الثعالبي : وناهيك بهذه الابيات جزالة وحلاوة وحسن معان كلا ولست اعني بها البيتين المشهورين :

لبسن الوشي لا متجملات ولكن كي يصن به الجمالا
وضفرن الغدائر لا لحسن ولكن خفن في الشعر الضلالا

اللذين قال فيهما الثعالبي : وهذا من احسانه المشهور الذي لا يشق غباره فيه او البيتين التاليين :

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسن في اجسادهن النواعم
ويبسمن عن در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

او غير هذه الابيات كلها من ابيات المتنبيء الحسنة في الغزل كلا اني لا اشير الى هذا كله لان هذا الشعر كله لايخلو من اثر الصنعة فهو حسن ولا شك ولكنه قليل النصيب من العاطفة وانما أريد بالابيات التي تشتمل على العاطفة قوله :

أحبه والهوى وآدؤره وكل حب صبابة ووله

هذه هي روح العشاق وهؤلاء هم الشعراء الذين يعرفون مقدار الحب فالعاشق

يحب كل شيء من اجل حبيبه ، فهو يحب حبيبه ويحب الهوى ويحب دار الحبيب ويقسم بالهوى وبدار الحبيب لان الحب ان هو الا ذهاب العقل ومن هذا الشكل قوله :

وإني لأعشق من اجلكم نحولي وكل امرىء ناحل

ومنه قوله :

وكيف التذاذي بالاصائل والضحى اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبّا

ومنه :

اذا كان شم الروح ادنى اليكم فلا برحتني روضة وقبول

ومنه :

فليتها لا تزال آوية وليته لا يزال مأواها

نعم هذه هي روح العشاق وهذا هو رمز العاطفة ولكن أمثال هذه الابيات قليلة في شعر المتنبيء ، فلم يكن ابوالطيب من اصحاب النسيب الخالد .

فاذا لم يخلد نسيب المتنبيء ، أفتخلد مراثيه ، أفكان ابوالطيب في هذه المراثي شجرة الاختراع وثمرة الابداع ، فلننظر في هذا كله .

ما اظن المراثي الا هذا الضرب من الشعر الذي يقرأه القاريء فيتبين له في تضاعيفه اثر اللوعة والحرقة ، او كرامة الميت ومبلغ تأثير موته في اهله وقومه الى غير ذلك من الكلام على أخلاقه وخصائصه ، فأقبح المراثي هذه القصائد التي لا نرى فيها الا صوراً عامة تصلح لكل رجل يبكى عليه ، ومن هذا الشكل كثير من مراثي المتقدمين التي تشتمل على الغلو في كل شيء حتى اصبحت مدعاة الى الضحك بدلاً من ان تكون مجلبة للدمع ، فما هي خصائص مراثي المتنبيء ؟

رثى ابو الطيب محمد بن اسحق التنوخي ورثى جدته التي كان يحبها حباً جمّا ورثى والدة سيف الدولة وابنه ابا الهيجاء عبد الله وعبده يماك واخته الصغرى واخته الكبرى وابا وائل تغلب بن داود حمدان واباشجاع فاتكاً وعمة عضد الدولة .

تختلف المراثي في عظم شأنها وحقارته على اختلاف موضوعاتها فاذا كان المرثي جليلاً استطاع الشاعر ان يجعل رثاءه جليلاً وتختلف العواطف فيها على قدر اتصال

الشاعر بالمرثي ، ولقد رثى ابوالطيب جماعة من أصحاب الشأن الجليل في عصرهم ورثى من يتصل بها محكم الاتصال وهي جدته فلننظر الى دموعه في هذه المراثي .

أرخى ابوالطيب في طائفة من مراثيه زمام الخيال فجمح به هذا الخيال حتى بلغ به أفقاً مشتركاً يسرح فيه كثير من الشعراء وكان هذا الامر في مقتبل عمره اي في الوقت الذي لم يثقف فيه خياله كل التثقيف وهذه حالة كثير من الشعراء فانهم ينزعون في فاتحة الامر الى التقليد ولكنهم اذا كانوا من اصحاب العبقرية لا يلبثون ان يخرجوا من هذا التقليد الى الابداع وهكذا كان المتنبيء في اول رثائه كرثائه للتنوخي :

ما كنت احسب قبل دفنك في الثرى ان الكواكب في التراب تغور
ما كنت آمل قبل نعشك ان ارى رضوى على ايدي الرجال تسير
خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس في كبد السماء مريضة والارض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائكة حوله وعيون اهل اللاذقية صور

لجأ الى الغلو في وصف الخطب وهذا مذهب كثير من لجأ اليه من الشعراء فلم يكن لابي الطيب فيه اجادة او احسان في استطاعة الشاعر ان يقول هذه الأبيات في كل رجل يموت فليس لها طابع خاص ودواوين العرب مشتملة على كثير من اشباه هذه المعاني العامة .

ولئن لم يكن لمرثية ابي الطيب في التنوخي طابع خاص فان في مرثيته في جدته طابعاً ظاهراً وقد اشرت الى هذه المرثيـة في كلامي على احساس المتنبيء فلست أجد حاجة الى الدلالة على موطن من مواطن العاطفة فيها فالقصيدة كلها مبلولة بدموع ابي الطيب فلم ينزع المتنبي فيها الى هذه الرسوم العامة التي تكون مشتركة .

ولكن جلالة الشعر تجلت في قصيدته في أم سيف الدولة فقد وجد المتنبيء مجال القول ذا سعة ، ووجد لساناً قائلاً فقال :

أطاب النفس انك مت موتاً تمنتـه البواقي والخوالي
رواق العز فوقك مسبطر وملك علي ابنك في كمال

اي نعش اكرم من نعش يمشي الامراء فيه حفاة :

مشى الامراء حوليهـا حفاة كأن المروَ من زف الرئال
وابرزت الخـدور مخبآت يضعن النقس امكنة الغوالي
اتتهن المصيبة غافلات فدمع الحزن في دمع الدلال

لقد استنزل ابو الطيب جلالة وحيـه من جلالة الميت فظهرت آثار العظمة على شعره .

وكذلك فقد استطاع ان يطبع بكاءه على ابن سيف الدولة بطابع خاص :

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرمل وهذا الذي يضني كذاك الذي يبلي
كأنك أبصرت الذي بي وخفته اذا عشت فاخترت الحمام على الثكل
تركت خدود الغانيات وفوقهـا دموع تذيب الحسن في الاعين النجل
تبل الثرى سوداً من المسك وحده وقد قطرت حمراً على الشعر الجثل
فان تك في قبر فانك في الحشا وان تك طفلاً فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكى على قدر سنه ولكن على قدر المخيلة والاصل

ولما بكى المتنبي على اخت سيف الدولة الصغرى كان عقله قد اختمر فنظر الى الحياة نظراً صحيحاً ومزج الفلسفة بالشعر فجاءت نظراته صادقة فيهـا تجربة الفيلسوف وقالب الشاعر :

ولذيذ الحياة أنفس في النفس وأشهى من ان يمل واحلى
واذا الشيخ قال أف فمـا مل حياة وانما الضعف ملاّ
آلة العيش صحة وشباب فاذا وليـا عن المرء ولّى
ابداً تسترد ما تهب الدنيا فيـا ليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغم وخل يغادر الوجد خلا
وهي معشوقة على الغدر لا تحفظ عهداً ولا تتمم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها وبفك اليدين عنهـا تخلى
شيم الغانيات فيهـا فما أدري لذا أنّث الناس اسمها ام لا

ولم يكن بكاؤه على أخت سيف لدولة الكبرى باقل من بكائه على أختـه الصغرى ففي هذه المرثية أجرى قلمه في وصف المصيبة فكادت المصيبة تتكلم :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب

حتى اذا لم يدع لي صدقه املاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

تعثرت به في الأفواه ألسنها والبرد في الطرق والأقلام في الكتب

ثم أفاض في الكلام على أخلاق أخت سيف الدولة وألف بين هذا الكلام وبين صدق عاطفته وحسن وفائه وكرم مودته وقد انقطع عن سيف الدولة ولم يبق له طمع في العودة اليه :

ارى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب

يظن ان فؤادي غير ملتهب وان دمع جفوني غير منسكب

بلى وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصاد والأدب

ومن مضت غير موروث خلائقها وان مضت يدها موروثة النشب

وهمها في العلى والمجد ناشئة وهم اترابها في اللهو واللعب

يعلمن حين تحيّا حسن مبسمها وليس يعلم الا الله بالشنب

هذا هو الرثاء لا تلك الصور الجامدة التي صورها في رثاء التنوخي فان مراثيه من بعد مرثية التنوخي طبعت بفرط الحس وكرم العاطفة وطيب القول وصدق النظر في الحياة وقد لجأ الى النظرات الفلسفية في رثائه فمرة كان يختصرها :

تصفو الحياة لجاهل او غافل عما مضى فيها وما يتوقع

ولمن يغالط في الحقائق نفسه و يسومها طلب المحال فتطمع

اين الذي الهرمان من بنيانه ما قومه ما يومه ما المصرع

تتخلف الآثار عن اصحابها حيناً و يدركها الفناء فتتبع

ومرة كان يتوسع فيها :

لا بد للانسان من ضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه

ينسى بها ما كان من عجبه وما أذاق الموت من كربه

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

تبخل ايدينا بارواحنا على زمان هي من كسبه

فهذه الارواح من جوه وهذه الاجسام من تربه

لو فكر العاشق في منتهى	حسن الذي يسبيه لم يسبه
لم يُر قرن الشمس في شرقه	فشكّت الانفس في غربه
يموت راعي الضان في جهله	ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره	وزاد في الامن على سربه
وغاية المفرط في سلمه	كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب	فؤاده يخفق من رعبه

هذه جملة القول في مراثيه فاذا كان لها طابع خاص فما هذا الطابع الا جلالة الشأن ولئن قلّد ابوالطيب في نسيبه ومشي فيه على آثار غيره فقد ابدع في مراثيه .

« للبحث صلة »



جامع التواريخ

« او نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة »

٩

حدثنا ابو الحسن قال حدثني ابي قال رأيت بالهند قوماً يقال لهم الجبارية يأكلون الميتة ويقذرهم جميع الهند عندهم انهم اذا ماسوهم نجسوا قال فهم يمشون وفي اعناقهم طبول يطبلون بها ليسمع اصواتهم فيتنحون عن طريقهم فاذا لم يتنح الرجل عند سماع الطبل فلا شيء على الجباري وان لم يضرب الجباري الطبل حتى يلاصق جسده جسد غيره قتله الذي يلتصق جسده به ولا يعدى عليه لان هذا من شرطهم وسنتهم. قال ولا يشرب احد من ماء هؤلاء الجبارية ولا يأكل من طعامهم ولا يخالطهم فهم ينزلون في ظاهر البلد ناحية. قال وهم ارمى الناس ومعاشهم من الصيد. قال وهناك قوم يقال لهم البابوانية يجرون مجرى المستقفين هاهنا والسلطان يطلبهم فاذا وقعوا في يده وظفر بهم فعل بهم كما يفعل باللصوص والعيارين قال وهم يصطادون الناس لايعرضون لغير ذلك قال والواحد منهم يتبع التجار الذين يطرأون اليهم من المسلمين والذمة فاذا رأى الواحد من التجار في طريق خال قبض عليه فحين يقبض عليه قد علم التاجر بامره فيسكت لانه ان استغاث او نطق قتله الهندي وقتل نفسه في الحال لا يتألم لذلك لاعتقادهم المشهور في القتل قال ويراهم الناس وقد اصطادوا الرجل فلا يعرضون لخلاصه لئلا يقتله ويقول

لهم الرجل الله الله ان عارضتموه فلا يمكن سلطاناً ولا غيره انتزاعه من يده في تلك الحال لئلا يعجل بقتله قال فاخبرني رجل من الهند ان رجلا من البابوانية قبض في طريق سفر على رجل لقيه منفرداً من التجار فقال له اشتر نفسك فتوافقا على ان يشتري نفسه منه بالف درهم فقال له التاجر تعلم اني خرجت ولاشيء معي ومالي في البلد فتصير معي الى داري في البلد لأؤدي ذلك اليك قال فأجابه وقبض على يده و لم يزل يمشي معه حتى اجتازا في طريقهما بقرية الجبارية طريقهما في سكة منها فسلكاها فحين حصلا فيها وظن التاجر الحيلة في الخلاص وقد كان عرف مذهب الهندي في الجبارية فلم يزل يمشي معه حتى رأى باباً مفتوحاً من دور الجبارية فجذب يده بحمية شديدة من يد البابواني وسعى فدخل دار الجباري فقال له مالك قال انا مستجير بك من يد بابواني اصطادني وتعريت منه قال لا بأس عليك فاجلس فصاح البابواني ياجباري ياجباري اخرج اليّ قال وهم لايدخلون دور الجبارية لاستقذارهم اياهم قال فخرج ووقف وبينهما عرض الطريق لانه لا يجوز لاحدهما ان يدنو من صاحبه فقال له البابواني اعطني صاحبي قال قد استجار بي فهبه لي قال لا افعل هذا رزقي فان لم تعطنيه لم ندع جبارياً حتى قتلناه قال فطال الكلام بينهما الى ان قال الجباري اسلمه اليك في الصحراء فامض براً تسبقه الى الموضع الفلاني قال فمضى ودخل الرجل عليّ وقال لي اخرج لا بأس عليك فخرج معه واخذ الجباري قوسه وخمسين نشابة قال وسهامهم من القصب قال فملق المسلم بكم الجباري ولصق به علماً منه بأن البابواني

لايدنو منه فلما صار الى الصحراء قال له الجباري تهيء واجتهد به فلم يفعل قال فاني لا اسلمه او لا يبقى معي سلاح قال شأنك قال وهم لا يخطئون البتة في الرمي ففوق نحوه سهمه فحين اطلقه تلقاه البابواني بشيء كان معه فاعترض السهم باثنين (١) فقطعه باثنين وسلم منه فتحير الجباري قال فلم يزل يرميه بنشابة نشابة ويفعل بها البابواني مثل ذلك الى ان ذهب النشاب ولم يبق منه الا نشابتان فضعفت نفس التاجر وايقن بالهلاك وقال للجباري الله الله في دمي قال فقال له البابواني لا يقع لك انك قد افلت ثم اخذ سهماً فقال له الجباري لا تقدر على ذلك وسأريك من رمي (٢) ما تحدث به ابداً انظر الى هذا الطائر الذي يطير في السماء فاني أرميه فأصرعه على رأسك ثم أرميك فلا اخطئك قال فشال البابواني رأسه ينظر الى الطير فرماه الجباري فاصاب فؤاده فخر صريعاً يضطرب ومات وقال للتاجر ارجع الآن آمناً فرجع الى داره واقام عندهم الى ان اجتاز بهم صحبة رحل معها الى مأمنه.

حدثنا ابو الحسن (٣) قال حدثني رجل من اهل دار الزبير بالبصرة دقاق قال اورد عليّ رجل غريب سفتجة باجل فكان يتردد الى ان حلت ثم قال ادعها عندك وآخذها متفرقة فكان يجيء في كل يوم فيأخذ بقدر نفقته الى ان نفدت وصارت بيننا معرفة والف الجلوس عندي وانست به وكان يراني اخرج كيسي من صندوق لي فاعطي منه النفقات التي تحل عليّ فقال لي

«١» م . ع كذا في الاصل ولعله فاعترض السهم بالشيء فقطعه اثنين. «٢» بالاصل ذمي «٣» الفرج بعد الشدة ٢ : ١١٠ كتاب الاذكياء.

يوماً ان قفل الرجل صاحبه في سفره وامينه في حضره وخليفته على حفظ ماله والذي ينفي الظنة عنده عن عياله فان لم يكن وثيقاً تطرقت الحيل عليه واري قفلك هذا وثيقاً فقل لي ممن ابتعته لابتاع مثله لنفسي فقلت من فلان القفال في خانات (١) الصفارين قال فما شعرت الا وقد جئت وطلبت صندوقي لأخرج منه شيئاً من الدراهم فحمل الي ففتحته فاذا ليس فيه شيء من الدراهم فقلت لغلامي وكان غير متهم عندي هل انكرت من الدرابات شيئاً فقال لا فقلت ففتش هل ترى في الدكان نقباً ففتش فقال لا فقلت فمن السقف حيلة فقال لا فقلت اعلم ان دراهمي قد ذهبت فقلق الغلام فسكت واقمت في دكاني لا أدري ما اعمل فتأخر عني الرجل فلما تأخر اتهمته وتذكرت مسألته لي عن القفل فقلت للغلام اخبرني كيف تفتح الدكان وتغلقه فقال رسمي اذا اغلقت الدكان اغلقه درابتين درابتين والدرابات في المسجد احملها دفعات اثنتين وثلاثاً في كل دفعة فاشرجها ثم اقفل وكذا افتحها فقلت البارحة واليوم كذا فعلت فقال نعم فقلت فاذا مضيت لترد الدرابات او تحضرها على من تدع الدكان قال خالياً فقلت فمن هاهنا وقع الشر ذهبت فمضيت الى الصانع الذي ابتعت منه القفل فقلت له جاءك انسان منذ ايام اشترى منك مثل هذا القفل قال نعم وحكى عن صفته كيت وكيت فاعطاني صفة صاحبي فعلمت انه جاء واختبأ للغلام (٢) وقت المساء حتى اذا انصرفت انا ومضى وهو يحمل

«١» بالاصل حوبات. «٢» عبارة الفرج اوضح : احتال على الغلام وقت المساء لما انصرفت انا وذهب الغلام يحمل الدرابات

الدرابات دخل الدكان فاختبأ فيه ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه الذي يقع على قفلي وانه أخذ الدراهم وجلس طول الليلة خلف الدرابات فلما جاء الغلام وفتح درابتين او ثلاث وحملها ليدفعها خرج هو وانه مافعل ذلك الا وقد خرج الى بغداد قال فسلمت دكاني الى الغلام وقلت له من سأل عني فعرفه اني خرجت الى ضيعتي قال وخرجت ومعي قفلي ومفتاحه فقلت ابتدئ بطلب الرجل بواسط فلما صعدت من السميرية (١) طلبت خاناً في الجسر (٢) انزله فارشدت اليه فصعدت واذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت فقلت لقيم الخان هذا البيت من ينزله فقال رجل قدم من البصرة اول امس فقلت اي شيء صفته فوصف صفة صاحبي فلم اشك انه هو وان الدراهم في بيته فاكتريت بيتاً الى جنبه ورصدت البيت حتى انصرف القيم وقمت ففتحت القفل بمفتاحي فحين دخلت البيت وجدت كيسي بعينه ملقىً فيه فاخذته وخرجت وقفلت البيت وتركته ونزلت الى السفينة التي جئت فيها وارغبت الملاح في زيادة أخرى (٣) حتى حملني وانحدرت في الحال وما اقمت بواسط الا ساعتين من النهار ورجعت الى البصرة بمالي .

حدثنا ابو الحسين حدثني رجل من اهل بغداد ان بعض من تاب من اللصوصية حدثه قال كان في الناحية الفلانية صيرفي كثير المال يطلبه اللصوص فلا يتم عليه حيلة ولا يقدرون عليه قال فتواطأ عليه جماعة لصوص كنت احدهم فقالوا كيف نعمل في دخول داره فقلت اما الدخول فعليّ لكم واما ما بعد

«١» م . ع السميرية ضرب من السفن. «٢» في الفرج : في الكتبيين. «٣» لعله : اجرته

ذلك فلا اضمنه فقالوا فما نريد الا الدخول قال فجئت وهم معي عشاء فقلت لواحد منهم (١) فتصدق فاذا خرجت الجارية اليك بشيء فتباعد وتمام عليها لتجيء اليك تعطيك الصدقة وكن على خطا من الباب لادخل انا وهي متشاغلة معك قد بعدت عن الباب فلا تراني الى ان ادخل فاختبيء قال ففعل ذلك وحصلت مختبئاً في مستراح في الدهليز فلما عادت الجارية قال لها (سيدها) قد احتبست قالت (٢) حتى اعطيت السائل الصدقة قال ليس هذا قدر دفعك اليه قالت لم يكن على الباب فلحقته في الطريق واعطيته فقال وكم خطوة مشيت من الباب قالت خطا كثيرة قال لعنك الله اخطأت عليّ قد حصل معي في الدار لص لا اشك فيه قال فحين سمعت هذا قامت قيامتي وتحيرت فقال لها هات القفل فجاءته به فجاء الى باب دهليز الدار والصحن بعد (٣) باب الدار فقفله من عنده ثم قال لها دعي اللص الآن يعمل مايشاء قال فلما انتصف الليل جاء اصحابي فصفروا على الباب ففتحت لهم باب الدار فدخلوا الدهليز واخبرتهم بالخبر فقالوا ننقب العتبة ونخرج الى الصحن ونقبوا فلما فرغوا قالوا ادخل معنا فقلت نفسي قد نبت عن هذا الرجل واحسست بشر وما ادخل البتة فاجتهدوا بي فقالوا لا نعطيك شيئاً فقلت قد رضيت فدخلوا فحين حصلوا في الصحن وانا في الدهليز اتسمع عليهم مشوا فيه فاذا المولى زبية في اكثر الصحن محيطة به يعرفها هو وعياله فيتقون المشي عليها ليلاً ونهاراً وهي منصوبة للحفظ من هذا وشبهه وعليها بارية من فوق خشب رقيق جداً فحين

«١» لعله سقط : دق الباب. «٢» بالاصل قال. «٣» لعله سقط : قفل.

حصلوا عليها سقطوا اليها فاذا هي عميقة جداً لايمكن الصعود منها فسمع المولى صوت سقوطهم فصاح وقع هوءلاء وقام هو وجاريته يصفقون ويرقصون وتناولوا حجارة معدة لهم فمازالوا يشدخون رؤسهم وابدانهم بها واصحابي يصيحون وانا احمد الله على السلامة الى ان اتلفهم (١) وهربت انا من الدهايز ولم اعرف لاصحابي خبراً كيف دفنوا او كيف اخرجوا فكان ذلك سبب توبتي من اللصوصية.

حدثني ابو الحسين قال حدثني رجل من البغداديين قال كنت انا حدثاً حسن الوجه فلما اتصلت لحيتي وهي طرية بعد (٢) طلبت التصرف فكتب لي الى ابي احمد النعمان ابن عبيد الله فلقيته في عمله فاكرمني وبالغ في بري وامرني بالجلوس فجلست وكلما اردت القيام احتبسني الى ان لم يبق عنده احد الا خواصه ثم احضر المائدة فاكلنا فلما فرغنا قمت لاغسل يدي فحلف ان لا اغسلها الا بحضرته فغسلتها وقمت فقال الى اين فقلت الى منزلي فقال انت هاهنا غريب ولعلك في خان فقلت هو كذلك فقال وموضعنا اطيب وهو خير وخيشنا بارد فاقم عندنا فقلت السمع والطاعة ولم اعرف ما في نفسه فدخلت الخيش فلما حصلت عنده فيه جعل يستدنيني ولا اعلم غرضه الى ان صرت بقربه فضرب بيده يولع بي فعلمت ان شرطه في اللواط اصحاب اللحي الطرية فصعب علي ماتم من ذلك وقلت كيف اصنع ليس الا التطايب قال فقلت له ياسيدي اي شيء تريد قال اريد ان افعل كذا وكذا

«١» الصواب: اتلفاهم. «٢» بالاصل بعيد.

فقلت ياسيدي براءتي معي وقبضت على لحيتي قال لاتفعل هذه براءة مزورة قلت كيف؟ قال لاني ماوقعت فيها بقلمي

انشدني ابوطاهر المعروف بسيدوك الواسطي لنفسه:

هات اسقنيها جموح البرق مامزجت
الا لتسيير سقلاطونها فينا
اذا لواعب اذرءوا بها غلبت
بجلنار سناها زهر (١) نسرينا
اريدني الناس ذر الشمس (٢) اذ رقصت
والماء يعرف في نار كما شينا

وانشدني لنفسه من ابيات:

ما اكثر الشعراء مذ قتل الندى
والشعر اعوز من دموع الارقم

وانشدني لنفسه قصيدة يمدح بها ابا الحسن عمران ابن شاهين امير البطيحة وفيها (ذكر) الهدرى (٣) الذي يقاتل به هو واصحابه وهو شبيه الحراب يقول :

يسبي النفوس حراب ما ادرت بها
كاس المنية الا رحت ذا طرب
تظل من فضة حتى اذا وردت اصدرتها من دم الابطال من ذهب

«١» بالاصل : هر. «٢» لعله : ادير في النار. «٣» لعله :المدرى.

من كل مقلية(١) الجنبين ماضية   قدت من الشمس اوقدت من اللهب

انشدني ابو الحسن محمد بن غسان بن عبد الجبار قال انشدني ابو اسحاق ابراهيم بن هليل (٢) الصابئ الكاتب لنفسه :

تورد دمعي فاستوى ومدامتي   وفي(٣) مثل ما في الكاس عيني تسكب

فوالله ما ادري أبالخمر أسكبت (٤)   جفوني ام من دمع عيني أشرب

وانشدني قال انشدني لنفسه(٥) :

مازلت في سكري المع كفها   وذراعها بالقرص والآبار (٦)

حتى تركت اديمها وكأنما   غرس البنفسج منه في الجمّار

قال وانشدني لنفسه (٧) :

فديت من شارفني لحظها (٨)   من خيفة الناس بتسليمته

لما رأت بدر الدجى زاهياً (٩)   وغاظها ذلك من شيمته

سرت له البرقع عن وجهها   فردت البدر الى قيمته

وانشدني قال قرأت على ظهر دفتر:

كنا نزوركم والدار دانية   في كل وقت فلما شطت الدار

صرنا نقدر وقتاً في زيارتكم   وليس للشوق في الاحشاء مقدار

«١» م . ع لعلها مجلية لغة في مجلوة . «٢» م . ع المشهور هلال . «٣» م . ع المعروف فمن مثل ما في . «٤» م . ع المعروف : اسبلت . «٥» معجم الادباء ١ : ٣٥٦ «٦» م . ع في معجم الادباء والآثار . «٧» معجم الادباء ١ : ٣٤٨ . «٨» م . ع كذا في الاصل ولعل صوابه سارقني لحظها . وفي معجم الادباء لاحظني طرفها . «٩» م . ع في معجم الادباء تائهاً .

حدثني ابو الحسن محمد بن غسان الطبيب قال كان عندنا بالبصرة في البيمارستان رجل موسوس يعرف بالحسن بن عون من اولاد الكتاب حبس في البيمارستان للعلاج في سنة ٣٤٢ وكان حبسه سنين ثم صلح فاستخدم في البيمارستان الى ان تكامل صلاحه وكنت اختلف الى البيمارستان لتعلم الطب فكنت اشاهده كثيراً فاول يوم علمت انه يقول الشعر سمعته وهو يقول :

ادافع همي بالتعلل والصبر ... وامنع نفسي بالحديث عن الفكر
وارجو غداً حتى اذا ما غد اتى ... تزايداني همي فيسلمني صبري
فلا الهم يفنيني ولا العمر ينقضي ... ولا فرج يأتي سوى ادمع تجري
الى الله اشكو ما اقاسي فانه ... عليم باني قد تحيرت في امري

وعرفت حاله في ادبه بانشاده اياي كل يوم من قطعة شعر يعملها بحضرتي وشاهد عمل الجلنجبين(١) في البيمارستان .

فقال وانشدنيه لنفسه :

انظر الى الورد في أكفهم ... يطيع(٢) للقاطفين من ورقه
كالقلب نار الهوى تحرقه ... والقلب يهوى الهوى على حرقه

وحملت اليه شيئاً من المأكول اشتهاه عليّ فكتب الى جانب حائط :

حضرت من طرف ما بعثت به(٣) ... وقلت ياسيدي ومولاي

«١» م.ع الجلنجبين معجون يعمل من الورد والعسل فارسي مركب من «كل» اي ورد و«انجبين» اي عسل «٢» لعله يضيع يعني يضوع . م.ع اطاع يطيع اي لم يمتنع على قاطفه ولم نجد ما يستأنس به لمجيء يضيع بمعنى يضوع الا تضيع بمعنى تضوع . «٣» م.ع لعل اصله حصرت من ظرف ما بعثت به . اي عييت وعجزت عن الثناء بسبب ظرافته وحسن ما بعثت به.

لو ان اعضاء شاكر نطقت بالشكر اثنت عليك اعضاي

ما نفثت للكرام كلهم و يا صباحي كمثل ممساي

لو ان مابي ببعض اعدائي بكيت مما ارى باعداي

حدثنا القاضي ابو القاسم عمر بن حسان بن الحسين انه بلغه عن رجل قليل المشيرة(١) ردي الدين كان يجمع بين زوجته وبين اهل الفساد في منزله قال عشق امرأته رجل وكان مفتناً(٢) عليها في منزله واحلفها بحضرته انها لا تطاوع زوجها على الجماع قال وكانا ليلة على شأنهما في اسفل الدار التي للزوج فصعدت المرأة الى السطح هناك واحتبست فلما جاءت خاصمها العشيق وقال لعله فعل بك زوجك كذا فقالت وحلفت انه ماجرى من ذلك شيء وسمع الزوج الكلام فقام يصلي في السطح ويصيح الله اكبر ليسمع العشيق ويعلمه انه لم يكن يصلي وهو جنب حتى يصلح بينه وبين المرأة بذلك .

وهذا ضد ماحدثني به ابو الحسن احمد بن يوسف بن البهلول التنوخي ان امرأة من اهلهم بالانبار كانت قد جازت الاربعين سنة وخرجت من بيتها الى بغداد في محنة عرضت لها فلما حصلت في الطريق رأت جملا يدير دولاباً فقالت ماهذا ؟فقيل لها دولاب الجمل فحلفت بالله انها ما رأت جملا قط .

حدثنا ابو الحسين احمد بن محمد بن طريف المعروف باحمد الطويل قال كتب اليّ ابو محمد عبد العزيز المافروخي وانا اتقلد حصن مهدي والغرض

«١» م . ع الصواب قليل الغيرة . «٢» م . ع الظاهر ان اصلها ينفق عليها وهو اقرب الى الاصل .

والاعمال التي كنت أتقلدها مع ذلك وهو يتقلد البصرة يسألني اطلاق تمر له اجتاز عليّ ويعرض بان مكافأة ذلك لا تذهب عليه فأطلقت له التمر بلا ضريبة ولا مؤونة وكتبت اليه اعاتبه على هذه اللفظة فكتب اليّ كتابا يعتذر حفظت منه قوله :

ووصل كتابك الذي أبان الله به فضلك وسهل الى سبل المكارم سبقك وفهمته فهم معجب به ومتعجب منه وسرني صدره لا لقدر الحاجة في نفسي ولا في نفسك ولكن لما انفذه من بصيرتي فيك وقواه من معرفتي بك ووجدتك وقد اضطربت من لفظة ذكرت أني ضمنتها كتابي وهي الايضاح والتلويح بالمكافاة والتعويض ومعاذ الله ان ينطق بذلك لساني او تجري به يدي لان مثله لا يجري الا عن ذي عطن ضيق الى ذي باع في المحامد قصير ولا هذه صورتك ولا صورتي واذا كانت الانفس واحدة والاموال مشتركة فأي فائدة لي في ان اتناولك ببعض مالك او ارد اليك ما هو لك فان تكن الصورة كما يخيل لي فانت أيدك الله المليم دوني وانت كنت بحمد الله ومنّه من كلما يقع عليه اللوم بعيداً وان تكن الاخرى وهبت زلتي لمعذرتي فاني بشر غير معصوم والخطأ والنسيان جاريان عليّ .

انشدني ابو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الكاتب الشيرازي قال انشدنا ابو محمد المهلبي في وزارته وعمله بين ايدينا وقد نصبت له في داره بالاهواز كلّة قصب وحركتها الريح فاستحسن ذلك وقال :

رأيت من الهوا فشمت بها اختلاس لحظ وخلت فيها وجيب قلب(١)

وحدثني ابو الفضل قال حدثني رجل من شيوخ المتصرفين ببلدنا يقال له عباد بن الحريش قال لما كتب علي بن المرزبان عم أبيك (٢) لعمرو بن الليث ورقت حاله بعده (٣) حتى قلده عمالة شيراز صادر المتصرفين على اموال الزمهم اياها وكنت ممن أخذ خطه عن العمل الذي كان يليه بثمانين الف درهم قال فأديت منها أربعين الف درهم ونفدت حيلتي وحالي ولم يبق لي في الدنيا الا داري التي اسكنها ولا قدر لثمنها فيما بقي علي فلم ادر ما اعمل وفكرت فوجدت علي بن المرزبان رجلاً سليم الصدر فعملت رؤيا واجمعت رأيي على ان القاه بها واجعلها سبباً لشكوى حالي والتوصل الى الخلاص قال فجلست وعملت الرؤيا وحفظتها واحتلت خمسين درهماً وبكرت من الغد قبل طلوع الفجر فدققت بابه ... (٤) كان له يجري مجرى حاجب من خلف الباب من انت فقلت عباد بن الحريش قال في هذا الوقت قلت نعم ففتح لي فدخلت وشكوت حالي وقلت هذه خمسون درهماً لا املك غيرها فخذها وادخلني اليه قبل تكاثر الناس عليه فان فرج الله عني فعلت بك وصنعت قال فدخل واستأذن لي وتلطف حتى ادخلني اليه وهو يستاك فقال ماجاء بك في هذا الوقت فدعوت له وقلت بشارة رأيتها في النوم البارحة فقال وما هي فقلت رايتك كأنك تجيء الى شيراز من حضرة الامير وتحتك فرس اشهب عظيم لم ير قط احسن منه وعليك السواد وقلنسوة الامير على رأسك وفي

«١» كذا بالاصل . «٢» الاصح: عمك . «٣» لعله عنده . «٤» يظهر انه قد سقط شيء .

يديك خاتمه وحواليك مائة الف انسان من فارس وراجل وقد تلقاك امير البلد فترجل لك وانت تجتاز وطريقك كله اخضر منور مزهر والناس يقولون ان الامير قد استخلف (١) على جميع امره قال وقصصت الرؤيا وهذا معناها فقال خيراً رأيت وخيراً يكون انشاء الله فما تريد ؟قال فشكوت حالي وذكرت امري فقال أنظر الك بعشرين الف درهم وتؤدي عشرين الف درهم قال فحلفت بالطلاق انه لم يبق لي الا مسكني وبكيت وقبلت يده واضطربت بحضرته فرحمني وكتب لي الى الديوان باسقاط ذلك عني وانصرفت ولم يمض الا شهور حتى كتب عمرو بن الليث الى علي بن المرزبان يستدعيه ويامره بحمل ما اجتمع له من الاموال وكان قد جمع له مالم يسمع قط باجتماع مثله في وقت واحد من اموال فارس فانه جمع له ستين الف الف درهم قال فحملها الى سابور (٢) وخرج وتلقاه عمرو بن الليث بجميع قواده واهل عسكره وهاله عظم ذلك المال فاستخلفه على فارس واعمالها حرباً وخراجاً وفوض اليه الامور كلها واذن اليه في الحل والعقد بغير استئمار وخلع عليه سواداً له وحمله على فرس اشهب عظيم الخلقة كان يعظمه عمرو ويكثر ركوبه ودفع اليه خاتمه وردّه الى فارس قال فوافاني في زمن الربيع ولم يحل الحول على قصتي معه فخرج امير البلد وقد صار من قبله ليستقبله وخرج الناس فتلقوه على ثلاثين فرسخاً واكثر وخرجت فتلقيته في مضيق على العطفة التي في طريق

«١» م . ع الظاهر استخلفه

«٢» م . ع سابور كورة بفارس

خراسان وقد ذكرها (١). وبينها وبين البلد نصف فرسخ قال فوافى وهو على الصفة التي ذكرتها له في المنام الموضوع والدنيا على الحقيقة خضراء بآثار الربيع وزهره وحوله اكثر من مائة الف انسان وعليه قلنسوة عمرو بن الليث وفي يده خاتمه وعليه السواد وتحته الفرس الاشهب وقد تلقاه امير البلد فترجل له . قال فحين رأيته ترجلت ودعوت له فلما رآني تبسم واخذ بيدي وادنى (٢) السواد بي ثم تفرق الجيش بين يديه فلحقته الى البلد فلم استطع القرب منه لازدحام الدواب فانصرفت وباكرته من غد في مثل ذلك الوقت الذي كنت جئته ليلة الرؤيا فقال لي الحاجب من انت فقلت عباد فقال ادخل واستأذن فدخلت وهو يستاك فضحك الي وقال قد صحت رؤياك يا عباد الحمد لله فقال لا تبرح من الدار حتى انظر في امرك قال وكان باهله باراً ورسمه اذا ولي عملاً ان لا ينظر في شي من امر نفسه حتى ينظر في امر اهله فيصرف من يصلح منهم للتصرف او يبره واذا فرغ منهم تدل الى الاخص فالاخص من حاشيته فاذا فرغ من ذلك نظر في امر نفسه قال فجلست في الدار الى قرب العصر وهو ينظر في امر اهله والتوقيعات تخرج بالصلات والارزاق وكتب التقليدات الى ان صاح الحاجب عباد بن الحريش فقمت اليه فقال اني ما نظرت في امر احد غير امر اهلي فلما فرغت

«١» م . ع قوله وقد ذكرها . مقدم وموضعه بعد قوله الآتي في المنام الموضوع

«٢» م . ع الظاهر ان اصلها وادنى سوادي . من قولهم وادنى سواده من سواده اي قرب شخصه من شخصه .

منهم بدأت بك قبل الناس كلهم فاحتكم ما تريد .فقلت يرد علي المال الذي اديته وتقلدني العمل الذي صرفتني عنه.قال فوقع لي برد المال وتقليد العمل وقال امض فقد اوعز لك بالعمل فخذ ارتفاعه كله. قال وكان يستدعيني في كل مدة ويحاسبني ولا يأخذ مني شيئاً انما يكتب لي روزات (١) من مال العمل ويصلح حسبانات ويقبلها ويخلدها (٢) الديوان وارجع الى العمل وكنت كذلك الى ان زالت ايامه فرجعت الى شيراز وقد اجتمع لي مال عظيم صودرت منه على شيء يسير وجلست في بيتي وعقدت «٣» نعمة بالمال ولم اطلب تصرفاً الى الآن .

حدثني ابو الفضل قال حدثني ابو الحسن ثابت بن سنان الحراني الطبيب انه رأى رقعة يتواردونها (٤) بخط جبريل بن بختيشوع المتطبب فيها ثبت ما وصل اليه من يحيى بن خالد البرمكي وبيته وجواريه واولاده من ضيعة وعقار ومـال وغير ذلك يحتوي على سبعين الف الف درهم وتفصيل ذلك شيئاً شيئاً وانهم يحفظونها للعجب والاعتبار قال فاستهولت ذلك وانصرفت فحدثت بذلك بعض الروساء ببغداد وكان بحضرته ابو الحسن

«١» م . ع يقال رازه روزاً اذا اختبره وجرب ما عنده والظاهر انه مأخوذ من كلمة روزي ومعناها بالفارسية يومي او يومية ثم نقلها الفرس انفسهم الى معنى الرزق والمعاش والمعنى على هذا انه كان يكتب لى عطاء من مال عملي . «٢» م . ع الظاهر ان الاصل يخلدها في الديوان او يدخلها الديوان .«٣» م . ع ولعل الاصل واعتقدت عقدة بالمال والعقدة كل مال يتأثل كالضيعة والعقار . واعتقده اشتراه.« ٤ » م . ع يقال وارده الماء وتوارده اذا ورده معه وبين الشاعرين توارد على معنى واحد ولعلهـا يتوارثونهـا .

علي بن هارون المنجم فقال وأي شيء تتعجب من هذا .

حدثني ابي عن ابيه قال (١) كنت بحضرة المتوكل في يوم مهرجان او نيروز وهو جالس والهدايا تحمل اليه من كل شيء عظيم ظريف مليح الى ان ضربت دبادب (٢) الظهر وهم بالقيام فدخل بختيشوع الطبيب وهو ابن جبريل بن بختيشوع الاكبر فحين رآه المتوكل استدناه جيداً حتى صار مع سريره واخذ يمازحه ويلاعبه ويقول اين هدية اليوم فقال له بختيشوع يا امير المؤمنين انا رجل نصراني لا اعرف هذا اليوم فاهدي فيه فقال دع هذا عنك ما تأخرت الى الآن الا انك اردت ان تكون هديتك أخير الهدايا فيورى (٣) فضلها على الهدايا فقال ما فكرت في هذا ولا حملت شيئاً فقال له بحياتي عليك . فضرب بيده الى كمه فاخرج منه مثل الدواة معمولا من عود هندي لم ير قط مثله كالابنوس سواداً وعليه حلية ذهب محرّق (٤) لم ير قط احسن منها عملا ولا من الدواة قال فقدر المتوكل ان الهدية هي الدواة فاستحسنها فقال لا تعجل يا مولاي حتى ترى ما فيها ففتحها واخرج من داخلها ملعقة كبيرة محرق من ياقوت احمر قال فخطفت ابصارنا ودهشنا وتحيرنا فبهت المتوكل وابلس «٥» وسكت ساعة متعجباً مفكراً ثم قال يابختيشوع والله ما رأيت لنفسي ولا في خزائني ولا في خزائن

«١» راجع عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ١ : ١٤٣ «٢» م . ع الدبادب حكاية صوت دب دب والدبداب الطبل ودبدب ضرب به ويحتمل ان يكون جمع دبداب. «٣» يريد فيرى وهي لغة العامة . م . ع : الظاهر فيدري فضلها . «٤» يقال حرقه بالمبرد اذا برده وحك بعضه ببعض كحرقه. «٥» م . ع ابلس تحير ودهش وسكت غماً .

ابائي ولا سمعت ولا بلغني انه كان للملوك من بني امية ولا لملوك العجم مثلها فمن اين لك هذه ؟ فقال الناس لا يطالبون بمثل هذا وقد اهديت اليك ما قد اعترفت بانك لم تر ولم تسمع بمثله حسناً فليس لك مسألتي عن غيره .قال بحياتي اخبرني فامتنع . الى ان كرر عليه احلافه بحياته دفعات وهو يمتنع فقال ويحك احلفك بحياتي دفعات ان تحدثني حديثاً فتمتنع وقد بذلت لي ما هو اجل من كل شيء قال فقال له نعم يامولاي كنت حدثاً اصحب ابي جبريل بن بختيشوع الى دور البرامكة وهو اذ ذاك طبيبهم لا يعرفون خدمة طبيب غيره ولا يثقون برأي غيره ويدخل الى حرمهم ولا يستتر اكثرهم عنه .قال فصحبته يوماً وقد دخل الى يحي بن خالد فلما خرج من عنده عدل به الخادم الى حجرة دنانير جاريته فدخلت معه وافضينا الى ستارة منصوبة في صدر مجلس عظيم وخلفها الجارية فشكت اليه شيئاً وجدته فاشار عليها بالفصد وكان لا يفصد بيده وانما يحمل معه من يفصد من تلامذته ورسم الفصد عليهم خمسمائة دينار قال فندبني ذلك اليوم للفصد واخرجت يدها من وراء الستارة ففصدتها وحملت الي في الحال خمسمائة دينار عيناً واخذتها وجلس ابي الى ان يحمل اليها شراب تشربه بحضرته ورمان اشار عليها باستعماله قال فحمل ذلك في صينية عظيمة مغطاة وتناولت منه ما ارادت وخرج الظرف مكشوفاً فرآه ابي فقال للخادم قدمه الي فقدمه اليه فكان في جملته جامة فيها رمان وفيها هذه الملعقة فحين راها ابي قال والله ما رأيت مثل هذه الملعقة ولا الجامة قال فقالت له دنانير بحياتي عليك ياجبريل خذها

قال فمضى وقام ينصرف فقالت له تمضي في اي شيء تدع هذه الملعقة قال لا ادري قالت أهدي اليك غلافها فقال ان تفضل «١»؟ فقالت هاتم «٢» تلك الدواة فجاءوا بهذه الدواة فوضع ابي فيها الملعقة وحملها والجامة في كمه وانصرفنا . فقال له المتوكل جامة تكون هذه ملعقتها يجب ان تكون عظيمة القدر فبحياتي ما كان من الجامة؟ فاضطرب وامتنع امتناعاً عظيما الى ان احلفه مراراً بحياته. فقال اعلم اذا قلت اي شيء كانت طالبتني بها فدعني امضي واجيء بها واتخلص منك دفعة واحدة فقال افعل قال ومضى فلم يهن المتوكل الجلوس ولم يأخذه القرار حتى جاء بختيشوع «٣» واخرج من كمه جامة على قدر الزبدية او الجامة اللطيفة من ياقوت اصفر فوضعها بين يديه.

«للبحث صلة»

«١» كذا بالاصل يريد تتفضلي . «٢» م . ع : لم نجد هاتم والمعروف هاتوا «٣» كذا بالاصل والمراد جبرئيل

رسالة الكرم

— ٤ —

« مقاربة الأثمار وبواكيره »

في المخصص اذا قارب الشجر ان يثمر فانه يقال له المُلِمّ وفي اللسان في ارض فلان من الشجر الملم كذا وكذا وهو الذي قارب ان يحمل . ويقال أحنط الشجر والعشب وحَنَط يحنُط حنوطاً اذا أدرك ثمره .

الأصمعي وتقول انه لمُحيل وربما حوّل العنبُ اذا ماأثمر في عام وأحال في الآخر . وفي المخصص واذا لم تحمل الشجرة عاماً بعد ان كانت تحمل قيل اخلفت وحالت تحول حيالاً وهي شجرة حائل في شجر حوائل فاذا حملت عاماً ولم تحمل عاماً فقد عاومت وفي مبادي اللغة وشجر واعد مرجو الثمر . وحائل لم تحمل سنتها .

وعوّم الكرم تعويماً اذا كثر حمله عاماً وقلّ آخر . وعنب معوّم اذا حمل عاماً ولم يحمل عاماً . كذا في اللسان والتاج . وفي الاصمعي . وعنب معوّم اذا ماحمل عاماً وقلّ حمله عاماً وفي مبادي اللغة ويقال شجرة معاومة وكرم معاوم اذا حملت سنة ولم تحمل أخرى .

البِكْر الكرم الذي حمل اول مرة (١) والجمع ابكار قال الفرزدق :

اذا هن ساقطن الحديث كأنه　　جنى النحل او ابكار كرم تُقَطَّف

أراد الكرم البكر الذي لم يحمل قبل ذلك .

وفي المخصص . واذا عجلت الشجرة بالأثمار و باليَنْع قيل بكَّرت وأبكرت وبَكَرَت تبكُر بكوراً وهي بَكُور وجمعها بُكُر واذا كان ذلك عادتها فهي مِبكار والثمرة باكورة ثم قال واذا أخَّرت فهي مِئْخار . والباكورة اول ما يدرك من الثمر . وفي المصباح باكورة الفاكهة اول مايدرك منها وابتكرت الفاكهة اكلت باكورتها . قال ابو حاتم : الباكورة من كل فاكهة ماعجل الاخراج والجمع البواكير والباكورات . وفي اللسان

---

(١) وفي اللسان الذي حمل اول حمله .

والباكور من كل شيء المعجّل المجيء والادراك والانثى باكورة · وابتكر الرجل اكل باكورة الفاكهة · واول كل شيء باكورته · وفي اللسان وتسرّع الكرم بسوقه غرّته وغُرّة الكرم سرعة بسوقه · وغرة النبات رأسه وغرة كل شيء اوله واكرمه ·

المِعْلاق والمُعْلوق · ماعلق من عنب ولحم وغيره كذا في اللسان · وفي التاج وفي بيته معاليق التمر والعنب جمع معلاق وفيه ايضاً وكل ماعلق به شيء فهو معلاقه ·

ويقال أَثْلَثَ الكرم · فضل ثلثه وأكل ثلثاه ·

« حب العنب وثمره »

الحب اسم جنس للحنطة وغيرها مما يكون في السنبل والاكمام جمعه حبوب كفلس وفلوس وواحدته حبة وتجمع على حبات على لفظها وعلى حباب ككلبة وكلاب · وفي اللسان والحب الزرع صغيراً كان او كبيراً واحدته حبة والحب معروف مستعمل في اشياء جمة · حبة من بر · وحبة من شعير حتى يقولوا حبة من عنب والحبة من الشعير والبر ونحوهما والجمع حبات وحب وحبوب وحبّان والاخيرة نادرة · وفيه ايضاً والحِبّة بزور البقل والرياحين و بزر كل نبات ينبت وحده من غير ان يبذر · وفي التاج الحبة بالضم عجم العنب وقد يخفف فيقال الحبة كثبة وسيأتي ·

وفيه ايضاً والحبة كثبة حبة العنب وقيل هي العنب اول ماينبت من الحب ما لم يغرس جمعه حبي كهدى ·

الأصمعي اول مايخرج من العنب نسميه ثمراً · وفي القاموس الثمر محركة حمل الشجر ثم قال والواحدة ثَمَرة وثُمُرة كسَمُرة(١) · وفي المصباح الثمر بفتحتين والثمرة مثله فالاول مذكر ويجمع على ثمار مثل جبل وجبال ثم يجمع الثمار على ثُمُر(٢) مثل كتاب وكتب ثم يجمع على أثمار مثل عنق وأعناق · والثاني مؤنث والجمع ثمرات مثل قصبة وقصبات · والثمر هو الحمل الذي تخرجه الشجرة سواء أكل او لا فيقال ثمر الاراك وثمر العوسج وثمر الدوم وهو المقل كما يقال ثمر النخل وثمر العنب · قال الازهري وأثمر الشجر

(١) جمعها ثمر كسمر ولا تكسر لقلة فعُلة في كلامهم ·

(٢) في اللسان وقد يجوز ان يكون الثُمُر جمع ثَمَرة كخَشَبة وخُشُب ·

أطلع ثمره اول مايخرجه فهو مثمر . وفي اللسان والثَّيْمار كالثمر . وفيه وثمر الشجر وأثمر صار فيه الثمر وقيل الثامر الذي بلغ أوان ان يثمر والمثمر الذي فيه ثمر . وشجر ثامر اذا أدرك ثمره وشجرة ثمراء ذات ثمر .

وثَمَّر النبات نفض نوره وعقد حبه . وقال ابن الاعرابي أثمر الشجر اذا طلع ثمره قبل ان ينضج فهو مثمر .

الحَمْل ثمر الشجرة والكسر لغة فيه . وقيل الحمل بالكسر ما ظهر من ثمر الشجر والحمل بالفتح مابطن منه كأنه ذهب به الى ما تحمله المرأة في البطن . وحملت المرأة والشجرة علقت . وشجر حامل . وفي التاج شجرة حاملة ذات حمل . وفي المخصص الحامل منها المطعم . وفي المصباح حملت الشجرة حملاً أخرجت ثمرتها فالثمرة حمل تسمية بالمصدر وهي حامل وحاملة .

وأطعمت الشجرة أثمرت وأطعمت الثمرة أدركت اي صارت ذات طَعْم وأطعمت الشجرة أدرك ثمرها (١) وشجر مُطعِم مثمر يؤكل ثمره والطعم بالفتح الأكل وما يؤديه الذوق من حلاوة وحموضة ونحوهما . وما يشتهى من الطعام .

والطعم بالضم الطعام . والحب الذي يلقى للطير .

الأُكُل الثمر يقال أُكُل بستانك دائم وكل مايؤكل فهو أُكُل وآكلت الشجرة أطعمت وآكل النخل والزرع وكل شيء اذا أطعم وأُكُل الشجرة جناها .

« العنب وحبه »

العِنَب والعِنَباء (٢) بالمد ثمر الكرم واحدته عنبة . وقال الجوهري فان جمعته في ادنى العدد جمعته بالتاء فقلت عنبات وفي الكثير عنب وأعناب . وقد عنب الكرم

---

(١) واطَّعمت الشجرة على افتعلت أدركت ثمرتها يعني اخذت طعماً وطابت .

(٢) قال الشاعر :

تُطعمن أحياناً وحيناً تَسقين العنباء المنقى والتين
كأنها من ثمر البساتين لا عيب الا انهن يلهين
عن لذة الدنيا وعن بعض الدين

تعنيباً . والعَنَّاب كشداد بائع العنب ورجل عانب ذو عنب . والعنب الخمر كما ان الخمر العنب في بعض اللغات . قال في المخصص العرب تسمي العنب خمراً والخمر عنباً . قيل ومن الاول قوله تعالى : (اني أراني أعصر خمراً) اي عنباً . ونقل ان رجلاً رأى يمانياً قد حمل عنباً فقال ما تحمل فقال خمراً فسمي العنب خمراً وقيل انها لغة يمانية ومن الثاني قول الراعي :

ينازعني بها نُدمان صدق ... شواء الطير والعنب الحقينا[1]

فقد أراد الخمر . ويقال عنب خمري يصلح للخمر .

الجَنى العنب قال الشاعر : (حب الجنى من شُرَّع نزول)

يريد ما شرع من الكرم في الماء وكل ما يجنى فهو جنى وجناة وجمع الجنى أجن وقد يجمع على أجناء . واكثر ما يستعمل الجنى فيما كان غضاً . ويقال أجنى العنب وأجنى الكرم اذا خرج جناه وأجنى الثمر أدرك وأجنى الشجرُ صار له جنى يجنى فيؤكل . وثمر جني كغني جني من ساعته وقيل الجَني الثمر المجتنى ما دام طرياً وجنى الثمر ونحوها وتجناها واجتناها تناولها من شجرتها . ويقال علل الرجل تعليلاً اذا جنى الثمرة مرة بعد أخرى فهو معلل كمحدث وفعله التعليل .

الفِطْر بالكسر والضم العنب[2] اذا بدت رؤوسه لان القضبان تنفطر عنه .

البرم بفتحتين حب العنب اذا كان مثل رؤوس الذر اوفوقه . وقد أبرَم الكرمُ .

العرجود كزنبور اول ما يخرج من العنب كالثآليل .

الحَثَر محركة حب العنب وذلك بعد البرم حين يصير كالجُلجُلال[3] . وفي اللسان والحثر حب العنقود اذا تبين . والحثر من العنب ما لم يونع وهو حامض صلب لم يتشكل ولم يتموه . وفي الاصمعي فاذا فرغ من نفضه قيل حثر وفصل .

---

(١) هكذا رواه في اللسان والتاج وفي المخصص ونازعني بها الخ والحقين المجعول في الزق . (٢) هكذا في التاج واللسان وفي المخصص اذا بدت رؤوس حب العنب كان فطراً ثم كان زمَعاً اذا كان مثل رؤوس الذر . (٣) هو ثمر الكزبرة وقيل حب السمسم ويقال لما في جوف التين من حب الجلجلان .

النفض [١] . حب العنب حين يأخذ بعضه ببعض . ويقال نفض الكرم اذا تفتحت عناقيده وانتفض الكرم نضر ورقه .

وجدَّر العنب صار حبه فويق النَّفَض . وفي اللسان جَدَر [٢] النبت والشجر وَجدُر [٣] جدارة وجدَّر وأجدر طلعت رؤوسه في اول الربيع وذلك يكون عشراً او نصف شهر وكذلك الارض .

و يقال فصَّل الكرمُ . خرج حبه صغيراً أمثال البُلْسن (العدس) فاذا عظم فكان مثل الحمص قالوا أهْبَر اي خرج هبره وفي التاج الهُبْر والهُبْرة . حب العنب .

أعْصى الكرمُ خرجت عيدانه او عِصِيُّه ولم يثمر . قال الأصمعي وهو حين يكون في العيدان مثل حب الخردل . « للبحث صلة »

سليم الجندي
عضو المجمع العلمي العربي



(١) هكذا في اللسان . وفي المخصص النفض حب العنب حين يأخذ بعضه ببعض او ينقبض وفي عبارة الأصمعي ثم يكون نفضاً حتى يأخذ بعضه ببعض او ينتفض . وفي القاموس والنفض بالتحريك ماسقط من الورق والثمر وحب العنب حين يوجد بعضه في بعض وقد زاد الزبيدي شارحه على الجملة الثانية فقال والنفض ايضاً ما تساقط من حب العنب الخ عبارة القاموس وقد تبين ان هذه الزيادة ليست في كلام اللسان والمخصص والأصمعي فلعلها سهو . فتأمل .

(٢) من باب قعد . (٣) ككرم .

مطبوعات حديثة

مختارات المقتطف

« وهي طائفة منتخبة ومبوبة من انباء ارتقاء العلوم في الثلث الاول من »
« القرن العشرين ، عدد صفحاته ٢٨٠ صفحة وفيه عدة أشكال »

نعم الهدية هذا الكتاب من المقتطف الى مشتركيه فلقد حوى من الانباء العلمية التي اعتدنا قراءتها في آخر صفحات المقتطف عدداً وافراً رتبت على ثلاثة اقسام وهي اولاً العلوم الطبيعية والرياضية ومنهـا النور والحرارة والجاذبيـة والكهرباء والكيمياء والفلك والجيولوجية . ثانياً علوم الاحياء ومنهـا العلوم المختصة بالنبات والزراعة والحيوان والانسان . ثالثاً العلوم التطبيقية وأشير بها الى علم الآثار والعاديات وما كشف العلماء منها في اوائل هذا القرن ، ثم تقدم المواصلات في البر والبحر والجو وتقدم المخاطبات بلا أسلاك . الخ .

وأعظم فائدة للكتاب ان القارئ يجد فيه معلومات شتى في تقدم العلوم المذكورة مجموعةً في مجلد واحد لولاه لكان القارئ يحتاج الى مراجعة عدد كبير من اجزاء المقتطف او المجلات الاجنبية . ثم انه يتذوّق فيه سلاسة اللغة العلمية لغة العلامة الفقيـد يعقوب صروف الذي لم يجاره بها احد في حياته ولم يبلغ مبلغه بعد مماته على ما نعلم ويعلم رفاقنا في المجمع العلمي العربي بدمشق .

ولا شك ان لغة المقتطف العلمية تدنت قليلاً بعد الفقيد وهذا امر لا يستغرب لانه لا يمكن للسيد فؤاد صروف ولا لغيره اياً كانوا ان يبحثوا في العلوم الحديثة على كثرتها بلغة يعقوب او يصلحوا مقالات الكتاب كما كان يصلحهـا ولكنني (وانا قائم على تتبع المصطلحات العلمية الطبيعية والزراعية في المقتطف وغيره) أتوسم بالسيد فؤاد انه سيكون خير خلف للفقيد في هذا الباب وهذا ما يسر كل الذين يغارون على لغتنا الكريمة .

وكنت فيما مضى قرأت في مجلدات المقتطف معظم الأبحاث الواردة في هذا الكتاب واقتبست كثيراً مما حوته من المصطلحات العلمية وقد عثرت اليوم في الصفحة ١٧٧ على لفظة

« زبانيين » بمعنى قرنين صغيرين وهـذه اللفظة فصيحـة وهي خير اسم للعضوين اللذين يسميان في علم الحشرات (Antennes) .

ولا بد لي وانا اكتب في مجلة المجمع من لفت نظر السيد فوآد المحترم الى بعض هفوات منها استعماله في الصفحة (ب) من المقدمة لفظة نوع بدلاً من صنف او ضرب فالانسان لا يستطيع اليوم ان يولد بالوسائل العلمية نوع الورد مثلاً بل يولد أصنافاً من نوع الورد (اوضروبًا) . وكنت اود لو استعمل لفظة الجسور بدلاً من الكباري في الصفحة (ح) لان اللفظة التركية الأخيرة لا يفهمها غير المصريين فالذلك يمكن وضعها ضمن هلالين لا الاقتصار عليها . وفي الصفحة نفسها لفظة أنسجة وهي شائعة مع انني لم أجدها في الامهات فجمع نسيج نُسُج وجمع نسيجة نسائج . وجاء في الصفحة ٥٠ « نتروجين الصودا أسرع فعلاً من سلفات الامونيا» والصحيح «نترات الصودا أسرع فعلاً من سلفات الامونيا » او « نتروجين نترات الصودا اسرع فعلاً من نتروجين سلفات الأمونيا » .

وبعد اننا نهنئ اصحاب شيخ المجلات بهذا الكتاب الذي هو يد جديدة تضاف الى ما لهم من الأيادي البيضاء على لغتنا العربية .

« الشهابي »

الاسمدة واستعمالها

« تأليف السيد حسني المقدادي ، وهو يحتوي على ١٦٥ صفحة »

« بقطع صغير »

يشتمل هذا الكتاب على أبحاث في النبات وغذائه والتربة وعناصرها والأسمدة وتركيبها واستعمالها في أهم الزروع والأشجار .

ويظهر ان المؤلف حديث العهد بالتأليف لان رأيه في كثير من الامور لا يزال فطيراً فقد قسم أنواع الأتربة في الصفحة (٤٣) ومايليها تقسيماً ناقصاً ومغلوطاً وجعل الكلس في أهم سهول الشام « اقل من كاف للمزروعات » ولا سيما في الاتربة الطينية الكلسية حيث مقدار الكلس عظيم . وقال ان الآزوت (نتروجين) في اكثر نموذجات الأتربة التي أُخذت من انحاء الشام وحللت هو أقل من نصف في الألف مع انني نشرت